الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي

العقيد أكلي محند اولحاج

البويرة

Ministère de l'Enseignement Supérieur et
de la Recherche Scientifique

Centre Universitaire
Colonel Akli Mohand Oulhadj
Bouira

معهد الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ

مذكرة لاستكمال متطلبات شهادة ليسانس

من إعداد الطلبة:

- **درياس مريم**
- **زينات مسعودة**

تحت إشراف:

العوفي بوعلام

السنة الجامعية 2011/2010

إهداء

طريق الألف يبدأ بخطوة ،وها نحن اليوم نخطو الخطوة الأخيرة في مشوارنا الدراسي بعملنا المتواضع هذا، والذي لولا إرادة الخالق وسهر الوالدين وتعبهما ما كنا لنصل.

أُهدي هذا العمل إلى من نمتُ في أحشائها تسعاً ورضعت بدل حليبهاحنانا وغمرتني أحضانها دفئاً، وشملني دعاؤها رعاية.

إليك أمي الحبيبة

إلى الذي يخفي رقة قلبه وراء صرامة شخصيته غير أن سخاءه وحرصه على تعليمي أبلغ دليل على فشله في إخفاء عطفه.

إلى شموخ عظمتك أبي الغالي

أداكما المولى عزّ و جلّ نورا و سندا لي.

الى جدتايوالدة أبي رحمها الله و طيّب ثراها ووالدة أمي شفاها الله وأطال عمرها في طاعته.

إلى من قدّر له أن ترى عينه ما كتب في جبينه "عمي العزازي" مع تمنياتي له بأن تكتب في ميزان حسناته وبالشفاء العاجل.

إلى أختي الوحيدة أمينة وإلى إخوتي رشيد ونبيل وإلى المرح الذي أبكى عينايقبل أن يفرح فؤادي بنبأ نجاحي في شهادة البكالوريا نور الدين أدامك الله نورا عل نور

إلى كل أعمامي وزوجاتهم وخاصة إبن عمي عبد الحميد.

إلى أخوالي وزوجاتهم، وخالتي وبناتها وعمتي وبناتها.

إلى كل رفيقات دربي صليحة، نادية، فاطمة، أمينة، ريمة وداد، وخاصة إلى زميلتي التي كانت سندا وعونا لي في هذا العمل درياس مريم.

((مسعودة))

إهداء

قال تعالى: "ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وق لهما قولاً كريماً"

إلى من حملتني في بطنها تسعة أشهرٍ وهنا على وهن، وأرضعتني حولين كاملين من خالص حنانها

والتي كانت نعم الرفيقة، إليك يا نسمة الهواء النقي

ويا نفسي وروح عمري ... أمّي الغالية

إليك يا قرّة عيني ويا مهجة قلبي وسند ظهري

إليك يا من كنت وما زلت شمعة تنير دربي

يا من اشتريت لي أول قلم لأرسم به دربي

أبي الحبيب

إلى مصابيح البيت، أخواتي : سميّة، نسيمة، نعيمة، سهام وراضية

إخوتي: سمير، رامي

وأهدي هذا الإنجاز البسيط وبالتحديد إلى رفيقات عمري وطفولتي

إيناس، زينب وبالخصوص إلى قاسي يوغرطة

وابنة خالتي "صافية"

كما لا أنسى صديقة دربي ورفيقة مشواري "مسعودة زينات"

التي كانت نعم الصديقة والمعينة

إلى كل من كانت للجامعة محطة لقائنا ومسرحا لذكرياتنا

وداد، ريمة

وإلى كل من ذكرهم قلبهم ونسيهم قلمي ...

((مريـــم))

شكر وتقدير

الحمد للّه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على من أرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً سيّد الأولين والآخرين، نبيّنا ومعلّمنا وقائدنا محمد صلى الله عليه وسلّم

وبعد :

لا يسعنا إلا أن نتقدم بوافر وجزيل الشّكر، وعظيم وخالص الامتياز والتقدير وبعد الله عزّ وجلّ إلى الأستاذ الفاضل "العوفي بوعلام"

نتقدم لك أستاذنا الفاضل بجزيل الشكر والتقدير، فقد كنت لنا أبًا لا أستاذًا بسعة ورحبة صدرك وطيبة قلبك، يجف القلم ويعجز اللسان عن عظمة شخصيتك فمرّة أخرى شكراً جزيلاً ومع تمنياتنا لك بالشفاء ودوام الصحة والعافية بإذن المولى عزّ وجلّ.

اهتمت الدراسات اللغوية منذ القدم بفكرة التواصل الإنساني، إذا كان أساس قيام تلك الأداة التي تضاربت حولها الأراء في خضمّ البحث عن نشأتها، ألا وهي اللغة، فباللغة استطاع الإنسان أن يعبّر عن أغراضه ومقاصده، لإيصال ما يريد نقله إلى غيره، ومن القضايا التي شغلت الفكر اللغوي قديما، ومازالت محلّ اهتمام الدارسين حديثا قضية (اللفظ والمعنى) حيث أن دراسة اللغة في ذاتها تعد دراسة للعلاقة القائمة بينهما، وقد دفعنا إلى هذا البحث شدة تعلقنا بالتراث العربي الإسلامي و الأهمية القصوى لهذه المسألة (اللفظ والمعنى) وارتباطها بكثير من العلوم ومجالات المعرفة الإنسانية، فدراستها لم تبق حبيسة الدراسات العربية فحسب بل تعدت رحاب التراث العربي لتشمل باقي أقطار العالم، حيث ترعرعت في أحضان مختلف العلوم عامة، وفي البلاغة واللسانيات على وجه الخصوص إذ تعد مسألة أساسية مشتركة بين العلوم والدراسات العربية المتصلة بالكلمة واللغة، ولعل أهم مشكل صادفته الدراسات العربية هو أي الجانبين يعود له الفضل في جودة الكلام اللفظ أم المعنى؟ وقد اشتقت عن هذه الإشكالية عدّة تساؤلات منها: – ما هو مفهوم اللفظ والمعنى؟ أين يكمن أثر القدامى في بلورة هذه القضية؟ وما موقف الجاحظ من هذه القضية؟ كل هذه التساؤلات تقودنا إلى البحث والتمحيص في ثنايا تراثنا الأصيل آخذين الحبال بين ما قدمه أسلافنا وما تبناه المحدثون منهم، وللإجابة عن هذه التساؤلات عدنا إلى رسم الخطوط العريضة عند الجاحظ لهذا البحث المسمى بـ (اللفظ والمعنى)، فكان أن طرقنا باب موضوعنا من خلال مدخل وفصلين، فتناولنا في المدخل لمحة عامة عن نشأة هذه القضية، كما اشرنا إلى بعض القدامى الذين انتبهوا إلى هذه القضية ومنهم عبد القاهر الجرجاني.

وتناولنا فيه أيضا نظرة الجاحظ إلى هذه القضية باعتباره أول من أثارها، وخصصنا الفصل الأول لشخصية الجاحظ وذلك من حيث المولد والنشأة والشكل والمذهب كما أننا أشرنا إلى أهم ما ميّز عصر هذهالشخصية، كما عرّجنا أيضا على ثقافته الواسعة ومدى تأثره بالثقافات الأخرى مثل اليونانية والفارسية... أما الفصل الثاني فجاء عنوانه "اللفظ والمعنى عند الجاحظ" تطرقنا فيه إلى مسائل من صميم بحثنا وهي: قسم تاريخي حول ظهور اللفظ والمعنى، تناولنا فيه النقاط التالية: أول من أثار هذه القضية، القدامى الذين التفتوا إلى هذه الظاهرة، نقاط الالتقاء والمطابقة بينهم، أمّا الجزء الثاني فركزنا فيه على:

عمل الجاحظ الاعتزالي وموقفه من اللفظ والمعنى، وكان رجوعنا بالأساس إلى أهم المؤلفات التي تعتبر مصادر بحثنا خاصة كتابي: تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس، وكتاب منهج النقد الأدبي عند العرب لصاحبه آدم أثويني، ونرجو أن يكون بحثنا هذا قد وفق في دراسة هذه القضية، فإن بلغ الغاية فذلك الهدف المنشود، وإن لم يبلغ فيكفي أن تمت فيه المحاولة والاجتهاد لإظهاره على الصورة التي هو عليها، ويبقى الكمال الله عزّ وجلّ، غير أنّه في سبيل ذلك لم نجد الطريق مفروشًا بالورود فقد اعترضت سبيلنا بعض الصعوبات إلا أننا وبفضل المجهودات المبذولة وبتوفيق الله وفضله تجاوزنها فالحمد والشكر له أولاً وأخيراً.

تعد اللغة أقدم ما عرفه الإنسان، وستظل السبب الرئيسي في السمو بمكانة الأمم أو الحط من قيمتها، انطلاقا من مقدرة تلك الأمة على توظيفها والتواصل من خلالها، فاللغة تتسم بالحياة لأنها قادرة على التعبير بصفة دقيقة عما يحيط بالإنسان، فهي تملك إمكانيات في تحمل الدلالات، ولأنها واكبت تطور الحياة الإنسانية، فكان لها وضع الأسماء بالمسميات يتحقق بها التفاهم والتواصل، وهي اللغة نفسها التي عُبر بها عن الشعور الذي يعد دليل البلاغة والفصاحة، كما عبر بها عن الرسالة السماوية فهي لغة القرآن، وهي فضلا عن ذلك لغة العلوم المختلفة من فقه وكيمياء وطب....الخ، فالعربية إذن لغة اتصلت بميادين الفكر المختلفة لأنها تتكيف مع مستجدات الأحداث بقدرتها على تغيير دلالات ألفاظها.[1]

وبالتتابع الزمني تطل الأبحاث اللغوية العربية كمرحلة لاحقة ومتممة لسابقتها، ولعل أهم عامل في ظهورها هو القرآن الكريم وما أحدثه من ثورة فكرية خلخلت البنية العقلية للإنسان العربي، فظهرت علوم عدة تخدم في معظمها النص القرآني وتحافظ عليه من اللحن والتحريف ومن أهمها: علم النحو، فقه اللغة والمعاجم، ومن أشهر من خاض في هذا المجال سيبويه، ابن جني، ابن فارس.... وقد استقصوا معظم جوانب اللغة من نحو وصرف، ترادف واشتقاق، إعلال وإبدال، بالإضافة إلى الجانب الدلالي الذي نال قسطا وافرا من البحث، فبحثوا عن العلاقة بين اللفظ والمعنى التي هي موضوع بحثنا وكذلك مظاهر التطور الدلالي وعرّفوا المشترك اللفظي، الترادف، توليد الألفاظ، وكذا الدخيل والأعجمي ومختلف الظواهر التي اشتهرت في التراث العربي.[2]

إن المتتبع للدرس اللغوي العربي، يجد أن معظم اللغويين قد خاضوا في مشكلة أصل اللغة واختلفت آراؤهم بين قائل بالتوفيق، وآخر بالاصطلاح، وموفق بينهما، ورغم أن الجاحظ لم يترك نصا صريحا يوضح فيه رأيه، فهو من أصحاب الرأي الثالث، فكونه متكلما ومعتزلا ليس له أن يخرج عن إطار ما قالت به المعتزلة التي كانت تقفل بالاصطلاح،لكنه لم يكن مرتاحا لهذا الرأي مع أنه في كثير من الأحيان يتحدث عن الألفاظ المحدثة، أو المصطلح عليها والتي دعت الحاجة إلى ابتكارها،كما في قوله: "فالمتكلمون مثلا تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني،

1- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط 1، 1998، ص 41.

2- سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001، ص 76.

اشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء، واصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع."[1]

ولقد استطاع الدارسون القدامى أن يضعوا لقضية «اللفظ والمعنى» قواعدها كما تصوروها، وعيا منهم لما لها من أهمية، وكل دراساتهم كانت تتم عن مدى سعيهم الدائم لفهم النص القرآني خاصة،[2] فظاهرة اللفظ والمعنى امتدت إلى علوم شتى، إذ نجدها في النحو والصرف وفي الوضع والمعاجم عند البلاغيين والأدباء والنقاد وفي التفسير، وفي الفلسفة ولدى المتمكنين «أصحاب الفرق الكلامية»، لذا ارتأينا أن ندرس هذه الظاهرة التي لها أثرها في الدلالة والغاية المقصودة من الكلام،[3] فنزول القرآن لم يكن حدثا عابرا بل كان هزة عنيفة زعزعت أركان الفكر العربي ونظرية الوجود، فهذا الكلام المعجز في كل شيء، لم يسبق للعرب أن صادفته مما كفّ عنهم ألسنتهم، بحيث لا تتطاول إليه طاقتهم، مهما بلغت من القوة والتمكن، وباتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول الأعاجم في الدين الجديد وازدياد اختلاط العرب بغيرهم بدأ الاهتمام ببلاغة الكلام العربي يضعف ويتلاشى لدى الأجيال المتعاقبة فكان لزاما عليها أن تعتمد العقل وتوظيف قدراتها المعرفية والفكرية للولوج في سر الإعجاز القرآني[4].

وفعلا تمّ ذلك انطلاقا من البحث عن موضوع الإعجاز فيه وأين يكمن، هل في ألفاظه أم في معانيه؟ كما دعت الحاجة إلى فهم النصوص الشعرية، وخاصة الجاهلية منها واستبيان فحواها إلى الغوص في مسألة اللفظ والمعنى، فقد اعتمد عليها النقاد كذلك في التمييز بين جيد الشعر ورديئه.

لقد بدأت التأليفات التي تناولت هذه القضية تظهر ابتداءا من القرن الثالث للهجرة منها كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (231 هـ) وخاصة "البيان والتبيان" للجاحظ سنة (255 هـ) وغيرها.

1- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط 4، ج1، 1985، ص 139، 140.

2- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص 42.

3- إحسان عبّاس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 1، لبنان، 1971، ص 187.

4- إحسان عبّاس، نفس المرجع، ص 188.

ولقضية اللفظ والمعنى علاقة وطيدة بمشكلة الوضع والمواضعة، فيما يخص نشأة اللغة، وما يسعنا هنا سوى الإشارة إلى هذه القضية، فعندما يحاول المرء التفكير في قضية نشأة اللغة، فإنه يتساءل هل الألفاظ موضوعة إزاء الصورة الذهنية، أم الماهيات الخارجية، وفي هذه المسألة تضاربت الآراء وانقسمت:

- فهناك فريق يرى أن الألفاظ وضِعت إزاء الصورة الذهنية ومن بينهم رأي فخر الدين الرازي ومثاله على ذلك أنه "من رأى شبحا من بعيد وظنه حجرا" أطلق عليه لفظ "حجر" فإذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ "شجر" فإذا دنا منه وظنه فرسا أطلق عليه اسم "الفرس" فإذا تحقق أنه إنسان أطلق عليه اسم "إنسان"،[1] وهذا ما يؤكد أن إطلاق اللفظ على شيء ما يكون إزاء الصورة الذهنية دون الماهية الخارجية، أي حسب ما هو متصور في ذهن الإنسان، وهذا الرأي يوافق إلى حد كبير نظرية الفكرة القائلة أن "معنى التعبير هو الفكرة أو المفهوم المرتبط بذلك التعبير في ذهن أي شخص يعرف هذا التعبير".[2]

فكانت تكتب تعبيرا مثلا وتقرأه، يتبادر إليك ما هو موجود في ذهنك فأنت تفهمه كما هو متصور في ذهنك.

- في حين يذهب فريق آخر إلى أن الماهية الخارجية هي الدافع إلى وضع الألفاظ، فالإنسان يضع الألفاظ على المسميات التي يراها في الخرج، وإن ير اها فهو يعتقد بوجودها كذلك، وهو رأي أبو إسحاق الشيرازي ورأيه هذا يوافق كثيرا نظرية الإشارة القائلة أن معنى التعبير هو ما يشير إليه هذا التعبير ويمثله.[3]

ويرى فريق ثالث، وهو فريق يحاول التوفيق بين الرأي الأول والثاني أن "اللفظ موضوع إزاء المعنى من حيث هو مع قطع المظهر عن كونه ذهنيا أو خارجيا"،[4] لأن الهدف ليس إدراك معنى اللفظ إن كان موضوعا إزاء الماهية الخارجية أو الصورة الذهنية، لكن المهم أن اللفظ حامل لمعنى بغض النظر عن الزاوية التي تنظر بها إليها.

1- جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص 42.

2- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عبّاس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط1، 1987، ص 32.

3- المرجع نفسه، ص 32.

4- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص 43.

في حين يرى الجرجاني أن: "اللغة تجري مجرى العلامات أو السمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه"[1].

فعبد القاهر يرى أن الألفاظ هي الوحدات الأساسية التي تشكل اللغة لأنها قابلة لتحقيق التواصل والتداول، فاللفظ عنده هو علامة أو سمة لأن الألفاظ أوضاع اللغة كما يقال بدليل قوله: "واعلم أن هاهنا أصلا ترى الناس في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر وهي أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها"، فهي أدلة عن المعاني أي "الألفاظ دالة عليها"، فالمعنى والمدلول هو الذي يجعل الألفاظ علامات أو سمات أو أدلة، فاللفظ على مستوى اللغة عند الجرجاني يحمل المعنى الحديث للسمة، أو الدليل اللغوي بوجهيه، اللفظ (الدال) والمعنى (المدلول).[2]

ومن الذين اهتموا بقضية اللفظ والمعنى، ابن رشيق القيرواني وابن الأثير، فقد كانت دراساتهم قريبة من النظريات الغربية الحديثة والمتعلقة أساسا بالشكل والمضمون حيث يرى ابن رشيق أن معظم الناس واللغويين على وجه الخصوص ينظرون إلى الشكل على أنه أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة، أعزّ مطلبا، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، لكن العمل الأهم جودة اللفظ وحسن السبك، وصحة التأليف[3]، فمثلا إذا أردنا أن نصف لوحة زيتية لفنان ما، أو منظرا طبيعيا، فبإمكان معظم الناس تقديم وصف خاص، ولكن لكل طريقته في ذلك ولكل اختياره الخاص للألفاظ التي يستعملها في ذلك الوصف، وبالتالي يستحيل علينا أن يكون الوصف واحدا وبنفس السبك والتركيب، إلا أن اهتمام ابن ر شيق باللفظ لا يعني أنه أهمل شأن المعنى، فقد رأى تكامل بعضها البعض، أو بالأحرى تداخلهما وتلاحمهما، وفي هذا الصدد يقول: "اللفظ جسم، روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته..."[4].

وتصادفنا وجهة نظر أخرى وهي قريبة من رؤية ابن رشيق، وهي وجهة نظر ابن الأثير، فيما يخص مسألة اللّفظ والمعنى، حيث يرى أنّ فصاحة القول تكمن في اللّفظة التي تعطي

1- عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص 137.

2- نفس المرجع، ص 138.

3-سمير أبو حمدان، الابلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ص 91.

4- ابن رشيق القيرواني، العمدة، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ج3، ط 1، 1996، ص 96.

للمعنى شكلا لائقا وأليفا، فإن كانت لدينا ألفاظ أو مفردات تحمل نفس المعنى، فإننا نختار اللّفظة الأليفة التي تستحسنها الأذن، وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير: "لو أن الفصاحة أمر يرجع إلى المعنى، لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه (على المعنى) سواء، ليس منها حسن ومنها قبيح، ولمّا لم يكن كذلك، علمنا أنّها تخص اللفظ دون المعنى"[1].

كما يرى أنّ المعاني الشريفة أقل عسرا وصعوبة من تحصل الألفاظ الشريفة، وهو الأمر الذي نوّه به الجاحظ عندما اعتبر: أنّ المعاني المتوارية في الصدور والمختلجة في النفوس، لا يمكن أن تحتل مرتبة رفيعةما لم تضع صوغًا بيانيًا ينعكس تأثير اً على نفس الملتقى وعقله.

فالمطلوب قبل كل شيء وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل وبقدر ما يكون ذلك متحصلاً يكون إظهار المعنى والدلالة على المعنى الحقيقي هو البيان الذي سمعت الله عزّ وجلّ يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه[2].

لقد عنى الجاحظ بدراسة مسائل قضية اللفظ والمعنى، وأتى على أكثرها دراسة وتحليلا، ولهذا عدّ زعيم مدرسة "أنصار اللّفظ" ولعلّ عبارة الجاحظ التي نجدها تتردد في كل الكتب التي تناولت القضية تعد فعلا العبارة المفتاح التي توضح موقفه من هذه الثنائية حيث يقول: "المعاني المطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن وتخير اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجود السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج وجنس من التصوير"[3].

وإذا أمعنا النظر في عبارة الجاحظ، فإننا نفهم أنه يعيب على من خصوا المعاني بالفضل والمزية، فهي مطروحة في الطريق، وجارية على ألسنة الناس، وإنما الشأن في الألفاظ التي يجب أن تكون متخيّرة وسهلة المخرج كما أنّ المعاني وإن وجدت، فإنه ليس بإمكان أي كان أن يدخلها في مجال الأدب سوى الأدباء، بما يراعون من جمال التعبير ولذلك لقيت عبارة الجاحظ تغيرات كثيرة، كالتغيير الذي أورده إحسان عبّاس حيث يرى أنّ: الجاحظ أدرك بأنّ الإعجاز القرآني مرتبط بالنظم، ومنه لم يكن هناك بُدٌ من تقديم المعنى على اللّفظ..، ولعلّ ما يثبت ذلك قول الجاحظ: "ولكل ضرب من الحديث، ضرب من اللّفظ، ولكل نوع من المعني نوع من

1- ابن الرشيق القيرواني، المرجع نفسه، ص 97

2- الجاحظ، المرجع السابق، ص 220.

3- الجاحظ، الحيوان، ت.ح: عبد السلام هارون، ج3، ط3، بيروت، لبنان، 1969، ص 131.

الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف"، حيث يرى الجاحظ ضرورة اختيار اللّفظ المناسب للمعنى المناسب، فلكل مقام مقال كما يقال، وأنّ وضع الأسماء كان بحسب المعنى الذي تؤديه.[1]

* **تطابق اللّفظ والمعنى عند الجاحظ**

إنّ اللّفظ والمعنى في مستواهما الفني غير مفصولين عن التصور اللّغوي عموماً، وعن أبحاث الإبداع الأدبي خصوصاً، بالإضافة إلى رأي الجاحظ في أقسام البيان عامة وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللغوية على وجه الخصوص، تمد تصوراته هذه إلى ترسيخ نظريته في الكلام، إذ يعتبر الجاحظ أوّل مفكر عربي يمكننا أن نقف في تراثنا العربي الأصيل على نظرياته المتكاملة، والتي تقدر لنا أنّ المظهر العلمي لوجود اللغة المجرد ينجز بالضرورة في سياق خاص، يجب أن تراعي فيه إلى جانب الناحية اللغوية، جملة من العوامل الأخرى كالسامع أو المرسل إليه باعتباره أول مستقبل للرسالة أو الكلام، والمقام وظروف القول، وكل ما يحيط بهذه العناصر أو ما يربط بينها، واختلاف هذه العناصر المكونة يؤدي إلى تنوع الكلام والخطاب، وبالتالي هناك استعمال مادي للظاهرة اللغوية وهو الاستعمال الهادف إلى تحقيق التواصل في المجتمع، والاستعمال الفني للظاهرة بأبعاد الصياغة ذاتها، وهو ما يسمى بالخطاب الأدبي والمحقق للبيان الفصيح وفي إطار هذا فالخطاب يكتسب لفظه ومعناه. ولقد عمل الجاحظ على تقديم اللفظ تارة والمعنى تارة أخرى، وهذا لا يوحي إلى أي تناقض إذا حمّلنا المعنى على أن المقصود منه محتوى الصياغة، فعلى الرغم من أنّ هناك من يرى أنّ البلاغة في الألفاظ، ولكن عند من يرواهذا الرأي أنّ (الجاحظ ومن تبعه)، (لم يعتنوا بالألفاظ أصواتا مجردة من معانيها وإنما عنوا بها العبارة عن المعنى)[2].

لذلك قد يبدو لنا غريبا أمر الدكتور "إحسان عبّاس" الذي يرى في دلالة المعنى لدى الجاحظ المستخلص من مقولته: "المعاني مطروحة في الطريق..." وهو يقارن ذلك برأي ابن قتيبة أنه يرى أنّ : "من بين الفروق بينهما اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللّفظ والمعنى، فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللّفظ ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية"[3]، ولعلّ الدكتور إحسان عبّاس

1- إحسان عبّاس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 98.

2- شكري عياد، كتاب أرسطو طليس، ترجمة : منى ابن يونس القنائي، دار الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1967.

3- إحسان عبّاس، المرجع السابق، ص 107.

يحمل اللفظ في قوله السابق معنى الشكل، فيكون انحياز الجاحظ إلى اللّفظ انحيازا إلى الصياغة المحتوية على معناها، في حين يتجسد موقف ابن قتيبة في تبنيه فكرة الصياغة والمعنى في مستواه الذي يدعو إليه الشعر من حكمة وأخلاق.

وبالتالي يمكننا القول إذا حملنا المعنى على المادة الأولية القابلة للتشكيل في صياغات متعددة لا تنفي التناقض عن الجاحظ، إذ أنّ التركيب المبرهن على الإعجاز لا يعني أصواتا متفرقة، وإنّما هو الانتظام المُوَحد لوحدات دالة في السياق الخاص بها، ويكون المعنى الناتج خلاصة لهذا النظام، وبالتالي فالنظم عبارة عن كتلة مكونة من طرفين هما اللفظ والمعنى، وبهذا الفهم الخاص ننفي التناقض الذي نسب للجاحظ، حيث يكون من بين دلالات المعنى عنده تلك الأصوات القابلة لأن تتشكل في صياغات مختلفة.

إذ يمكننا القول أنّ هذه الاتهامات الموجهة للجاحظ هي مجرد سوء فهم بعض هؤلاء المفكرين والنقاد وخلطهم للمصطلحات التي استعملها الجاحظ والتي حملوها مضامين يتجاذبها العصر الحديث، فلا هي عبّرت عن مقاصد الجاحظ تعبيراً صحيحاً، ولا أعطت بديلاً لها، والدليل على ذلك أن هؤ لاء في إطار هذه الاتهامات وقعوا في تناقض، وخير مثال على ذلك: "الدكتور شوقي ضيف الذي أكّد ميل الجاحظ إلى الألفاظ وأنّه كان شغوفا بحسنها وبهائها، فضلا عن خلطهم للمصطلحات حيث كانوا يستعملون تارة اللّفظ والمعنى ومقابل لذلك الشكل، والمضمون وراح كل واحد منهم يضيف مفاهيمه الخاصة لها"[1].

فعلى مسألة اللّفظ والمعنى عمل الجاحظ على البحث في هذه القضية من زوايا متعددة، فهو يرى مثلا أنّ أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه، وذلك لا يتم برأيه إلاّ من خلال المزاوجة بين المعنى الشريف، واللفظ البديع، ليقول الجاحظ: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه ..."، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال، مصوتاً عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة، ويرى أنّ المعاني في متناول جميع النّاس، وإنّ الكلام لا يكتفي بالمعنى

1- إحسان عبّاس، نفس المرجع، ص 108.

البليغ وحده حتى يكتسب صفة البلاغة، وإنّما هو محتاج إلى اللّفظ الفصيح والأسلوب القوي المحكم بكل عناصره حتى يكون له تأثيره القوي في أسماع النّاس[1].

* **اللّفظ والمعنى، الدال والمدلول والعلاقة بينهما**

إنّ المتمعن المدقق فيما خلفه الجاحظ أثناء حديثه عن اللغة، يجد أنّه يوظف ثلاثة مصطلحات تتداخل فيما بينها وهي الاسم، اللفظ والمعنى، فما العلاقة بينها؟

يقول:واعلم أنّ حكم الألفاظ خلاف حكم المعاني، لأنّ المعاني مبسوطة إل غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة"[2] وهذا يعني أنّه يعطي للمعاني مفهوم اللانهاية، أمّا الأسماء فهي محددة، وكأنها تعجز عن الإطاحة بكل المعاني، و الأسماء هنا هي بمنزلة الخط والصور والرسوم، ويتضح ذلك في قول الجاحظ: "إنّما سمي شوال شوالا، لأنّ النوق شالت بأذنابها فيه، فإن قال قائل قد يتفق أن يكون شوال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه، فلِم بقي هذا الاسم عليه، وقد ينتقل ما له لزم عنه؟ قيل إنّما جعل هذا الاسم له سمة، حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فبقي عليه كالسمة"[3]، وفي ذلك دلالة للعلاقة العضوية بين المعنى والاسم، لتصبح هذه العلاقة فيما بعد علاقة غير منطقية أو غير عضوية.

وقد اتفق أن وظّف الجاحظ المعاني، الأسماء، والألفاظ في سياق واحد حين قال: "إنّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام، حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني"[4].

وهنا يبرز الفرق جليًا فالمعاني هي الأفكار والأسماء هي الصور الصوتية أو اللّفظية لها، ولمّا عجزت الأسماء المتعارف عليها في اللّغة عن مجاراة المعاني، كان لابد من ظهور الاصطلاح، والشاهد هنا أنّ أبا عثمان فيما بعد يوظّف الألفاظ بمعنى المعاني أو العكس كما ذكرنا في قوله: "المعاني مطروحة في الطريق ..."، وفي ذلك إثارة إلى أنّ الظاهرة اللغوية بصفة عامة قائمة على المتصوّرات أي "المعاني" و"الأصوات" "الألفاظ"[5].

1- قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتّاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003، ص308.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.

3- الجاحظ، نفسه، ص 169.

4- الجاحظ، نفسه، ص 141.

5- الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 131.

إنّ الخلاف القائم حاليا بين النقاد حول معرفة الموقف الحقيقي للجاحظ من اللفظ والمعنى راجع أساسا إلى الخلط الملحوظ أحيانا في تعبيره هو نفسه عن هذه المفاهيم، وهذا الخلط في التعبير عن هذه المفاهيم لم يتعرض لها النقاد على ما يبدو، والحال أنّه يشكل تناقضا صريحا ولا يمكن التسليم به للجاحظ، ولهذا وجب علينا أن نفهم هذه القضية داخل نظامه الكلامي، ليس هذا فحسب، بل لا بدّ من مسايرة الجاحظ في مغامراته التي سلك فيه اللفظ والمعنى، لأنّ هذه وإن كانت لا تتوفر فيها كل المتطلبات المنهجية العلمية، إلاّ أنّها أكثر اتصالا به وبالتالي أكثر تعقيداً من موقفه الحقيقي[1].

وبناءً على هذا التعقيب وما قدّمه الجاحظ لخدمة الدّرس اللغوي، يمكن القول بأنّه وبجدارة قد كرّس رؤية علمية شاملة، وهذه الرؤية ما هي إلاّ ثمرة من ثمار الدرس اللّغوي خاصة والأدبي على وجه العموم، ذلك أنّ اللّغة العربية نظام مرن قابل للدراسة والتحليل ومصدر للإبداع والإنتاج[2].

1- محمد الصغير بنّاني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص139.

2- ينظر: محمد الصغير بنّاني، ص 140.

مولده ونشأته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن قزارة، الكناني الليثي، من بني كنانة بن خزيمة، والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر، ويقال لهم كنانة طلحة، والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناه ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ فهو عربي كناني[1]، ولكن رغم ذلك فهذا الاضطراب في مولد الجاحظ ومماته، لحق هذا الاضطراب نسبة أيضا فعله بعضهم كنانيا أصيلا، وجعله بعضهم الآخر كنانيا بالولاء، وقد يكون التعليل الثاني أقرب إلى الصحة من التعليل الأول.

أطلق عليه لقب (الجاحظ) بسبب نتوء حدقته مما جعله ذميما، وربما لقب بـ(الحدقي) فهو أقل ذيوعا من لقبه الأول[2]، واختلف في السنة التي ولد فيها حيث يقال أنه عام 159 هـ 775م ومات عام 255هـ 768م أي أنه عاش 96 سنة وقد شكا هو نفسه كبر سنّه في قوله عندما ذكر مرضه: "وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها". وقد نقل ياقوت في معجمه أنّا أبا عثمان قال: "أنا أسن من أبي نواس سنة ولدت في أوّل سنة 130هـ وولد في آخرها"[3]، كانت البصرة مكان ولادته، نشأ من أبوين فقيرين إذ توفي والده وهو لا يزال صغيرا، وكان يبيع الخبز والسمك في سيحان أحد أنهر البصرة وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الآداب فأكب على الدرس، وجد في التحصيل وأخذ من جهابذة اللّغة والرواية كالأصمعي، وأبي عبيدة.[4]

زُعِم أن الجاحظ كان مولى لأبي القلمس الكناني النسّاء أحد حكام العرب وأول من نشأ الشهور على العرب في الجاهلية فأحل لهم ما أحل وحرم محرم، قيل:" كان فزارة جد الجاحظ أسود اللون وكان حمالا لعمرو بن قلع الكناني."، ومن هنا تطرق الشك إلى عربية أبي عثمان فتساءل بعضهم، هل كان من أسرة عربية سامية ؟ أم من العناصر الإفريقية التي عرفت الرق؟[5]، وسواد فزارة في رأي يموت ليس دليلا على أن

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، ص 53.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة متعددة، ص 08.

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة جحظ، د.ت، ص 192.

4- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط29، 1975م، ص 267.

5- جورج غريب، المرجع السابق، ص 80.

الجاحظ انحدر من أصول غير عربية فقد يكون العربي أسود اللون، وما جاء في هذه الرواية أن جد الجاحظ كان حمالا لعربي وهو عمرو بن قلع ليس دليلا قاطعا على إثبات ما يزعمون على أن الأرجح أن الرواية منحولة، إذ ترد عن مصدر موثوق به ولم يرو أحد أن احد آباء الجاحظ كان رقيقا أو وقع في أسر.

لقد كان للجاحظ من شخصيته القوية وروح الاعتزال السارية فيما سمو به عن هذه الصغائر إلى شيء آخر، وهو ذلك الولاء الذي يدين به، فهو ينحدر من أصل عربي صريح خالص، من بيت كريم المحتد، عظيم المعتزلة في الجاهلية والإسلام.[1]

كان الجاحظ يختلف إلى مساجد ومنازل العلماء، وإلى سوق "المربد" الشهيرة حيث تلقى أفانين الخطابة عن بلغاء العرب وفصاحتهم، كما كان يستأجر دكاكين الوراقين، أثناء الليل لتمضية وقته في المطالعة والبحث العميق.

حدّث أبو هفان، قال: "لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتّاب، والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع كتاب قط وإلا استوفى قراءته، كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر، والفتح بن خاقان فإنه كان يحظر لمجالسة المتوكل ... "[2]

انتقل الجاحظ إلى بغداد عاصمة الخلافة، واتصل بالأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري، والنظّام الأخفش، فاستقامت له علوم اللغة والكلام والنحو والحكمة، فأتقن أساليب الأدب شعرا ونثرا، كتابة وخطابة على السواء، ولا شك أن إطلاعه على هذه العلوم جميعا جعل ذهنه "دائرة المعارف" كاملة وساعده على إقامة مذهب فكري، فلسفي عُرف بـ "الجاحظية" وكان له أتباعه ومريدوه، ولاسيما أن الجاحظ وثيق الصلة بـ "المعتزلة" التي ذاعت بين الفكر في ذلك الحين،[3] ومن مريد البصرة وحلقات المسجدين ودروس العلماء وأحاديث البلغاء وفكهات الظرفاء ومجالس الحكماء، أخذ الجاحظ كثيرا من ضروب الثقافة، وما أكثر ما كان أبو عثمان يلتقي بالأعراب والواردين على المربد، يثقف الفصاحة منهم ـــــ ومن أدباء الكتاب كابن

1- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، ط2، 1975م، ص 83.

2- فوزي عطوي، الجاحظ، دار المعارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م، ص 13.

3- محمد عبد المنعم خفاجي، ابو عثمان الجاحظ، ص 95 وما بعدها.

وهـب وابـن الزيـات، أخـذ الجـاحظ الكثيـر، كـذلك مـن الثقافـة الأدبيـة والنقديـة، وبهـم عـرف ماهيـة الشـعر، حتـى ليقـول: "طلبـت علـم الشـعر عنـد الأصـمعي فوجدتـه لا يحسـن إلا غريبـه، فرجعـت إلـى الأخفـش فوجدتـه لا يـتقن إلا إعرابـه، فعطفـت علـى أبـي عبيـدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالإخبار، وتعلم بالأيام والأنساب ....."[1]

حـذق الجـاحظ اللغـة والشـعر والأدب كمـا حـذق علـم الكـلام وعلـوم الـدين وألـم بالثقافـات المترجمـة ولـم ينقطـع عـن القـراءة ولـم يشـله فقـره عـن العلـم، بـل وجـد فيـه كـل لـذة، وأصـبح ولوعـا بـه، شـغوفا بحياتـه مـن أجلـه، وبـدأ يؤلـف الكتـب إلا أن النـاس كـانوا ينصـرفون عنهـا، فلـم تلـق رواجـا ولا ذيوعـا وأخـذ يؤلـف الكتـب وينسـبها لغيـره، فتلقـى مـن الـرواج والشـهرة أكثـر ممـا يقـدر، وكـل ذلـك ليسـتطيع أن يعـيش، وأن يُـدفِع نفسـه الخصاصـة ومـرارة الجـوع وقسـوة الفقـر والحرمـان،[2] يقـول الجـاحظ: " إنـي ربمـا ألفـت الكتـاب المحكـم المـتقن فـي الـدين والفقـه والرسـائل والسـيرة والخطـاب والخـراج والأحكـام وسـائر فنـون الحكمـة وأنسـبه لنفسـي، فيتواطـأ الطعـن فيـه جماعـة مـن أهـل العلـم بالحسـد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته وفصاحته وأكثر ما يكون هذا منهم...."[3]

وفـي خلافـة الرشـيد كـان الجـاحظ قـد بلـغ مبلـغ الرجـال واسـتكمل كـل أسـباب ثقافتـه وأخـذ بجـد فـي تـأليف الكتـب والرسـائل، وفـي عـام 176هـ زار الرشـيد البصـرة بـدعوة مـن واليهـا جعفـر بـن سـليمان بـن علـي وشـاهد الجـاحظ مـن عظمـة الخلافـة مـا شـاهد، ولا شـك أن اتسـاع الثقافـة العربيـة فـي عصـر الرشـيد بترجمـة الثقافـات الأجنبيـة إلـى لغـة القـرآن وحركـة المعتزلـة وتأثيراتهـا الفكريـة الواسـعة ممـا أمـد الجـاحظ الطمـوح بطاقـات قويـة مـن المعـارف والعلـوم وظـل مقيمـا بالبصـرة عاكفـا علـى القـراءة والكتابـة، وهكـذا بـدأت شـهرته تتعـدّى الآفـاق، فأعجـب الخليفـة المـأمون ممّـا وصـله مـن كتبـه فاسـتدعاه وصـدر ديـوان الرسـائل، فقـال السـهل بـن هـارون: "إن ثبـت الجـاحظ فـي هـذا الـديوان أفـل نجـم الكتاب."[4]

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 61 و63.

2- جورج غريب، المرجع السابق، ص 10.

3- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص 90.

4- محمد كرد علي، أمراء البيان ، دار الآفاق العربية، مصر، ج2، 2003، ص 322 و323.

صفـــاته وأخلاقـــه

كان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور، لا يعين المغيظ المحنق، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب، وتغمره الغبطة، وتعتاده الدعابة، وخفة الروح في جبلة، لا تفزعه المظاهر، فطر على الوفاء لأصحابه والثبات على ودهم وعهدهم، كان يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد، بعيدا عن الفوضى، ويحب النظام في الجملة، إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة وإذا أتاه ينفقه ولا يحسب للغد حسابا كبيرا.[1]

أما شكله فقد اشتهر به وكثيرا ما اشتهر بلقبه الجاحظ، الدال على نتوء العين وحدقتيه وجحوظهما وفي لسان العرب تعني كلمة جحظ، الجاحظ والجحوظ، أي خروج مقلة العين وظهورها، ورجل جاحظ العين، إذ كانت حدقتاه خارجتين،[2] وليس لدينا برهان يثبت أن في شكل الجاحظ صفات جسمية زنجية، ولكنه شديد السمرة، إن المعلومات التي يمكن جمعها عن شكل الجاحظ من آثاره نادرة جدا، وجل ما وصل إلينا أنه كان قصير القامة، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذن.

ويجدر بنا في هذا المجال ألا نبالغ في قبح الجاحظ، فإن تاريخ الأدب القديم قد رسم له صورة ليس فيها شيء من الأناقة، إن الجاحظ قد خلد ذكره أسلوبه الكتابي الناصع الطريق.

ثم جاء الأدب الشعبي فاستغل فكرة ميل الجاحظ للدعابة والتهكم ليجعل منه بطل هذا الأسلوب أو راويا للنوادر المستملحة، كما استغل هذا الأدب الشعبي شكله ليغذي موضوع القبح، حتى نسب إليه دون حياء اعترافه بقبحه.[3]

ولم يكتف باستنكار أبيات شاعر مجهول أسماه الوطواط أحمد بن سلامة الكبتي يقول فيها:

1- ابن منظور، لسان العرب، ص192.

2- شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة دإبر اهيم الكيلاني، د.ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ص99.

3- نفسه، ص 100.

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيــا ... مــا كــان إلاّ دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى في عين كل ملاحظ
ولــو أنّ مــرآة جلت تمثالــه ... ورآه، كان له كأعظـم واعـــظ[1]

وإن أشــهر النــوادر عــن قــبح الجــاحظ هــي التــي انطقــوه بهــا عــن نفســه قــال: "مــا أخجلنــي إلا امــرأة مــرت بــي إلــى صــائغ فقالــت لــه: اعمــل مثــل هــذا، فبقيــت مبهوتــا ثــم ســألت الصــائغ فقــال: هـذه امـرأة أرادت أن أعمـل لهـا صـورة شـيطان، فقلـت لا أدري كيـف أصوره، فأتت بك لأصوره على صورتك."[(2)]

يشـبه الجـاحظ سـقراط بشـاعة ودمامـة، ولقـد أهمـل اسـمه "عمـرو" وسـقطت كنيتـه "أبـو عثمــان" لتبقــى لــه جاحظيتــه إذ كــان يقــول: "إن هــذا الاســم لا يقــع فــي الجاهليــة والإســلام إلا على فارس مذكور، أو ملك مشهور، أو سيد مطاع أو رئيس متبوع."[(3)]

علــى أن أبــا عثمــان اســتطاع أن يرتفــع بلقــب الجــاحظ زعــم هجنتــه إلــى أعلــى المراتــب، فهــا هــو أبــو زيــد البلخــي ينعــت بجــاحظ خراســان، وأبــو الفضــل بــن العميــد يوصف بالجاحظ الثاني، وقد نازعه هذه التسمية غير واحد مشاهير العلماء والأدباء.

وكــان النقــاد إذا أرادوا مــدح كبــار الكتــاب نســبوهم إلــى مدرســته،[(4)] ولكــن صــاحب الحيـوان حـوى النقيضـين، فـإلى قـبح وجهـه، ونتـوء عينيـه وقصـر قامتـه أضـاف خفـة الـروح والظـرف وحسـن المعاشـرة ولطـف النكتـة إلـى طبيعـة أصـيلة ناعمـة فـي السـخر والـتهكم والمـرح التـواق إلـى الدعابـة حيـث التصـوير الصـادق لنفسـه الطليقـة،[(5)] والجـاحظ يلـتمس النكتـة بشـغف، ويوردهـا ولـو كانـت علـى نفسـه فغيـر عجيـب، وقـد طبـع علـى مثـل هـذه اللفتـة علـى حيـاة، وأن يكـون محبـا للهـو والاسـتمتاع والمجانـة أحيانـا، فيطيـب لـه سـماع الغناء، وتطيب له مجالس القيان، لكنه ظل بعيدا عن قيود الزواج ومشاغل الأولاد.

1- شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص 102.
2- نفسه، ص 103.
3- جورج غريب، المرجع السابق، ص 20.
4- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، د.ت، ص 558.
5- ينظر: حنا الفاخوري، نفس المرجع، ص 567.

وهذه النزعة هي التي جعلته يهزأ بعادات الناس وأنواع العصبية المذهبية، فهو ذو ذكاء وقاد وفراسة نادرة يميل إلى التكسب ولاغرو بعد أن اتسع صيته وضجت به الأسماع.[1]

إن هذا اللقب الذي حمله أول مرة الرجل ذو الشكل القبيح أصبح فيما بعد عنوان شرف في مهنة الأدب، أحد أمراء البيان وعالم من علماء الكلام المرموقين وشيخ من شيوخ الاعتزال البارزين، وصاحب الفرقة الجاحظية.

مؤلفات الجاحظ وكتبه

ترك الجاحظ آثار ا فكرية، أدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي، وقد ضاعت هذه الآثار ولم يبق إلا قليل منها وهذه الآثار مظهر لملكية علمية، ولذهنية عقلية، ولمطالعات وبحوث عميقة، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حبا للقراءة والتأليف، ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه،[2] ويقول ابن العميد عن كتب الجاحظ: "إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا."[3]هذه الكتب لم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيان في الأدب، والإنشاء، والخطابة وكتاب الحيوان، وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضرار وكتاب البخلاء وديوان رسائله،[4] وأما الأقوال في المصنفات فكثيرة منها قول المسعودي: "كتب الجاحظ تجلو أصداء الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأن نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه، أجزل لفظ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، ورسائل في غاية الكمال ... ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه."[5] فآثار الجاحظ وأفكاره وكتبه، تؤلف موسوعة علمية، وأدبية كاملة وهي خير منال للثقافة العربية والنضج الفكري والأدب البليغ والأسلوب الإنشائي الرفيع، وقد ضاع الكثير منها، وقد قالوا عنه إنه

1- شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص 99.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 284.

3- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص 250.

4- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 39.

5- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ط 2، 1972م، ص 593.

تـرك مـا ينيـف عـن مئـة وسـبعين كتابـا حيـث سـاعده علـى كثـرة التـأليف امتـداد عمـره وانصراف العظماء عن استخدامه في قصورهم.

وإنـه لمـن الصـعب جمـع تلـك المصـنفات فـي فئـات معينـة مرتبـة كمـا أنّ قـارئ هـذه الكتـب ومـا حوتـه مـن آثـار حفظـه وتدوينـه واسـتقرائه واسـتنتاجه يـدرك سـر إعجـاب الأجيـال بهـا، حتـى كـان النـاس يترقبـون فـي عصـره صـدورها كمـا ترقـب اليـوم ظهـور الصـحف والمجـلات الذائعـة، ولـم يكـن عنـد أبـي عثمـان أحـب مـن الكتـاب والعلـم، وسنحاول إحصاء بعض هذه الكتب.[1]

1. كتب في القرآن الكريم

- كتاب الاحتجاج لنظم القرآن وغريبه.
- كتاب خلق القرآن.
- كتاب الرد على الحد في كتاب الله.
- كتاب مسائل القرآن.

2. كتب في الأحكام

- رسالة في الميراث.
- رسالة في مدح النبذ (أهداها إلى الحسن بن وهب)
- رسالة في ذم النبيذ.
- كتاب في ذم الزنا.

3. كتب في الفرق والآراء

- كتاب أصحاب الإلهام ويسمى كتاب الرد على أصحاب الإلهام.
- الرد على اليهود.
- الرد على النصراني واليهود.

4. كتب في الأخلاق والمجتمع

- أخلاق الشطار.
- أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة.

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 567.

- رسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات في الأخلاق المحمودة والمذمومة.

5. في السياسة والاقتصاد

- رسالة في الخراج.
- رسالة في مناقب وعامة خند الخلافة.
- كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات.

6 في التاريخ و الجغرافيا والطبيعيات والرياضيات

- كتاب الأخبار وكيف تصح.
- كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية.
- كتاب المعادن.
- كتاب في طبقات المغنيين.
- كتاب الحيوان.

7 في الأدب و الشعر والعلوم اللسانية والأدبية

- كتاب البيان.
- كتاب المحاسن والأضداد والعجائب والغرائب.
- كتاب عناصر الآداب.

8. موضوعات أخرى

- رسالة التربيع والتدوير.
- رسالة في العشق.
- كتاب الإخوان.

مميزات عصره

إذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ، فلا نصور هذا العصر بأحسن من تصوير الجاحظ له ويتجلى ذلك واضحًا ودقيقًا من خلال كتاباته التي نجد في تضاعيفها تحليلا وسردًا شاملاً لوقائع الحياة التي كانت سائدة في عصره، ولعلّ النّظرية القائلة بأن الإنسان ابن بيئته تجد تطبيقًا حيالها في أدب الجاحظ ولقد اجتهد من خلال كتاباته وآرائه في إبراز شخصيته وفلسفته، ثم أراد التعبير عن موقفه إزاء أنماط السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية أهل عصره. "لقد جاء نتيجة ثمرة للعصر

العباسـي الأول، والربـع الأول مـن العصـر الثـاني بمختلـف فعالياتـه السياسـية والاجتماعيـة والفكرية والأدبية والعلمية"[1].

الجانب الاجتماعي في عصر الجاحظ

إنّ أسـاس الحيـاة الاجتماعيـة هـو الحالـة الاقتصـادية فـي أي مجتمـع مـن المجتمعـات أو أمّـة مـن الأمـم، ولقد كانـت الحيـاة الاقتصـادية فـي عصـر الجـاحظ لا تكـاد تسـتقر علـى أسـاس متـين[2]، فكانـت ظروفهـا غايـة فـي التعقيـد الحضـاري والخـروج عـن المظـاهر التـي عرفـت بهـا المجتمعـات العربيـة الإسـلامية فـي عهـد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلّم، وعصـور خلفائـه الراشـدين، فـالمجتمع الإسـلامي فـي العصـر العباسـي كـان مزيجـاً مـن الحضـارات والأعـراف والأجنـاس المتعـددة، تشـابكت تشـابكًا غريبًـا فـي أفكارهـا وعاداتهـا وتقاليـدها وأنمـاط تفكيرهـا. ولقـد انقسـم النّـاس مـن حيـث الوضـع الاجتمـاعي إلـى خاصـة وعامـة، فالخلفـاء العبّاسـيون كـانوا يعيشـون فـي قصـورهم المترفـة بعيـداً وفـي معـزل عـن الرعيـة والعامـة الـذين يمـنعهم الحـرّاس والحجـاب مـن الاقتـراب مـنهم، حيـث كـان العامـة يعيشون في فقر مدقع وضنك شديد[3].

وقـد صـوّر أبـو العتاهيـة حيـاة الفقـراء والشـعب فـي شـعره تصـويراً صـادقًا ومـن ذلـك تصويره للغلاء في بغداد في قوله:

إنّي أرى الأسعـار أسـ عـار الرعيـة غاليـة
وأرى اليتـامى والأرا مـل في البيوت الخالية
يشكـون مجهدة بأصـ وات ضعـاف عـالية
من للبطون الجائعات وللجسـوم العـارية؟[4]

وأكثـرأبـو العتاهيـة فـي شـعره مـن الـدعوة إلـى الزّهـد، والرغبـة عـن الملـذّات والانصراف عن الدنيا، وذلك من أثر الحرمان والفقر، يقول من شعره:

1- علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، دون طبعة، ص 33.
2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 25.
3- أنظر: علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 33-34.
4- علي شلق، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 2006، ص 24.

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية
تدرس فيها دفتراً مستنداً بسارية
خير من الساعات في دفء القصور العالية[1]

أمّا في الجانب الثقافي: فلقد ازدهرت الثقافة العربية، وتألّقت في أيّام الدولة العباسية الّتي بلغت قمّة المجد والفطنة قوّة وحضارة وغنى وتلك هي العوامل الثلاثة التي ينمو بتأثيرها الفكر والثقافة والعلم، وكان من أهم ميزات الازدهار الثقافي ومظاهره حرية الفكر التي سرعان ما نجمت عنها مشاكل أخرى.

إذ مثّل الجاحظ حرية عصره الفكرية خير تمثيل، في العلم والدين والأدب، ففي العلم استند إلى العقل في التحقيق، وفي الدين اتبع المعتزلة بما في تعاليمها من حرية عقلية، وفي مذاهبه الفنية اعتنق نفسه من كلّ قيد[2].

إلى جانب ذلك تمكن العامة من النّاس وخاصتهم أيضا من إرسال أطفالهم إلى الكتاتيب التي كانت منتشرة آنذاك في كل مكان، وإلى جانب الكتاتيب امتاز العصر كذلك بوجود السوق الأدبية المشهورة في بادية البصرة المعروفة بـ "سوق المربد" حين كان منهلا للثقافة العربية، وكان الناس يروحون ويغدون عليه للقاء الفصحاء من العرب، كما كانت المساجد أشبه بالجامعات فكانت حلقات الفقه أكثر الحلقات احتشاداً بالطّلاب، ومن الأسباب الّتي أعانت على إحداث الازدهار الثقافي، المجالس العلمية، وشيوخ المكتبات العامة وتزامن ذلك مع ظهور صناعة الورق واتخاذه وسيلة للكتابة فظهرت الكتابة ودكاكين الوراقين[3].

الحياة الدينية: تميزت الحياة الدينية بالحرية ما فتح المجال لظهور الفرق والمذاهب الدينية.

1- علي شلق، الجاحظ، ص 25.
2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 6.
3- علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 35.

إنّ الجـاحظ إمـام مـن أئمـة المعتزلـة، إذ يقـول عنـه الأديـب شـفيق جبـري: "فـإذا الحرية الفكر، في عصر الجاحظ صورة فالجاحظ صورة هذه الحرية"[1].

ويعـد المـذهب الاعتزالـي مـن أكبـر المـذاهب التـي عرفهـا عصـر الجـاحظ حتـى وصـل الأمـر إلـى اتخـاذ الدولـة لـه كمـذهب لهـا والعمـل بمبادئـه: "وعلـى هـذا النحـو لـم يتكـون للاعتـزال أئمـة أو بـاحثون ممتـازون فقـط، تكـون هـؤلاء الفلاسـفة فـي العصـر العباسـي الأول، وهـو العصـر الـذي بلـغ فيـه الاعتـزال الـذّروة المأمولـة، حتّـى تصـبح لـه السـيطرة الكاملة على الحكم في عهد المأمون والمعتصم ..."[2].

ولقـد أدّت استفاضـة الحريـة فـي عصـر الجـاحظ إلـى انتشـار الزندقـة، بعـد أن اشـتدّ التمـازج العنصـري بـين الأجنـاس المختلفـة، التـي ضـمتها الخلافـة العباسـية، فاختلطـت الأفكـار والعـادات والمعتقـدات، وعـن كـلّ هـذا فقـد تعـددت المناقضـات التـي بـدورها أدّت إلى ظهور اتجاهين مختلفين متضادين:

الاتجـــاه الأول: والمتمثـل فـي اللّهـو والتّـرف والمجـون، أضـف إلـى ذلـك ظهـور الزندقـة والشـعوبية الدينيـة التـي سـعت إلـى بعـث المجوسـية، والشـعوبية القوميـة التـي أرادت الحط من مكانة العرب.

أمّـا الاتجـاه الثّـاني: فقـد جـاء ضـد الأول فهـو المحـافظ المتمسّـك بمبـادئ الـدين الإسـلامي، جـاء ليشـن حملـة علـى الشـعوبية، مـن بينـهم الجـاحظ مـن خـلال كتابـه "البيـان والتبيين" و"البخلاء"[3].

الحياة العقلية في عصر الجاحظ

لقـد تشـبعت الزندقـة فـي العصـر العباسـي فجـاوزت المسـلمين إلـى غيـر العـرب، وشـاعت فـي طبقـات الأدبـاء والشـعراء، وأدى الاخـتلاط الكبيـر بـين الأجنـاس المختلفـة إلـى اخـتلاط ثقـافي مثمـر، غـذى العقـول المتعطشـة، والنفـوس الطامعـة إلـى النهـل مـن رواد الثقافـات المتباعـدة، وبالتـالي ازدهـرت الحيـاة العقليـة فـي عصـر الجـاحظ كثيـرا، فقـد سـاهم الخلفـاء بتشـجيعاتهم واهتمامـاتهم بالحركـة العلميـة فـي شـتى جوانبهـا، إذ أخـذوا

1- شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 81.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج4، العصر العباسي 2، دار المعارف، مصر، ط 2، 1975، ص 171.

3- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 172.

يكرّمـون الأدبــاء والشــعراء والعلمــاء ويجالســونهم ويقربــونهم إلــيهم، فأصــبح العلــم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية والنفوذ والجاه.[1]

وإذا كانـت الدولـة مزيجـا بـين شـعوب كثيـرة، فـإن عقليـة الشـعب العربـي كانـت آنـذاك صدى لامتزاج الثقافات، وتلاقي الحضارات، ولتصافي الأجناس في غالب الأمر.

كانـت الثقافــة العربيــة الإســلامية هــي الذائعــة، وهــي أســاس التكــوين العقلــي للطالــب العربــي فــي عصــر الجــاحظ، وقوامهــا علــوم الــدين، اللغــة والأدب، ومــا يتصــل بكــل ذلــك مــن علــوم ومعــارف، ولهــا أكبــر الأثــر فــي الفكــر الإســلامي فــي عصــر الجــاحظ، كمــا كانت المورد العذب للناس جميعا.[2]

ولقـد ازدهـرت حركــة الترجمــة فــي العصــر العباســي الأول، عصــر المهــدي والرشــيد والمـأمون وهـو العصـر الـذي ولـد فيـه الجـاحظ ونشـأ واكتمـل تكوينـه،[3] فقد أشـار الجـاحظ فـي أكثـر مـن موضـوع إلـى الترجمـة، وإلـى الكتـب المترجمـة الموضـوعة علـى نسـق تـأليفي مـنظم بـين أيـدي العلمـاء نمـاذج قويـة مـن التـأليف تـدعوهم إلـى اختزانهـا، كمـا فتحـت لهـم آفاقا من الموضوعات يبحثونها ويكتبون فيها.[4]

لقـد حفـل عصـر الجـاحظ بكثيـر مـن الأعـلام فـي شـتى الميـادين كـالأدب والشـعر والنقـد واللغـة، مـن أشـهرهم: أبـو نـواس، أبـو العتاهيـة، أبـو تمـام، ابـن قتيبـة، سـيبويه، الأصـمعي والمبـرد، وكـان الجـاحظ "درة العصـر، وقمـة مـا بلغـه مـن نهضـة أدبيـة مرموقـة، فأدبه مرآة مصقولة عكست لنا كل ناحية من نواحي عصره."[5]

1- ينظر: رابح العوبي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال التربيع والتدوير، الحيوان، البخلاء، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م، ص 52.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 31.

3- فيكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ط3، دار المشرق، لبنان، 1992م، ص 20 و21.

4- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، 1979م، ص 148.

5- شفيق جبري، الجاحظ معلّم العقل والأدب، مصر، ص 110.

الحياة السياسية

لقد عرف الجانب السياسي في العصر العباسي عدة مظاهر أثرت فيه حيث كان العنصر العربي في مطلع الدولة العباسية هو صاحب السيادة والسيطرة والهيمنة في كل شيء، ثم أخذ العنصر الفارسي يسيطر تدريجيا بداية من البرامكة في أيام الرشيد، وإن كانت القبضة العربية هي الأقوى ثم بدأت هذه القبضة تضعف وتتراخى شيئا فشيئا إلى أن سلمت الزمام للفرس بعد قتل الأمين، وتولى المأمون الخلافة، وظل الأمر كذلك إلى أن أقبل المعتصم فعمل على إبراز عنصر جديد هو الأتراك، وإن كانت قبضته وقبضة ابنه الواثق من بعده هما القويتان صاحبتا الحل والعقد، فلما مات الواثق جاء المتوكل بواسطة "إيتاخ"[1] ومن حوله، حيث تجلى الاستبداد التركي في أبشع صورة، فالخليفة رهن مشيئتهم بقاؤه أو عزله أو قتله، فقد قتلوا "المتوكل" و"المستعين" و"المعتز" و"المهتدي"، ويمكن أن نجعل الحالة السياسية في العصر العباسي في ناحيتين ميزتا الحالة السياسية فيه منذ بدايته في ذي الحجة سنة 132 هـ وحتى سنة 255هـ التي شهدت نهاية الخليفة "المعتز بالله"، وبداية "المهتدي بالله" وهي السنة التي تجمع الروايات على أن الجاحظ مات أثناءها (255 هـ)، وهاتان الناحيتان هما:

الناحية الخارجية: قد بلغت الدولة العباسية ذروة المجد فيها.

الناحية الداخلية: تنوعت فيها صفوف الاضطرابات والثورات ومظاهر الشغب.

هكذا إذن سنأتي إلى القول أنّ العصر الذي أنجب الجاحظ يعد من أزهى وأزهر العصور الأدبية، حيث كانت الحضارة الإسلامية سراجاً تنير العالم بعلمائها وأدبائها، وغدت الحركة الأدبية نشيطة بفضل تشجيعها من طرف الخلفاء[2].

1- شفيق جبري، المرجع السابق، ص 111.

2- ينظر ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين، نشأة وفكراً وأسلوباً، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، د.ت، ص 165.

مصادر ثقافته

كانـت ثقافـة أبـي عثمـان ثقافـة واسـعة منوّعـة، تحـيط بسـائر ألـوان المعرفـة فـي عصـره، فهـو عـالم مـن علمـاء الـدين، ومـتكلم مـن الطـراز الأول، فقـد خـاض فـي بحـار العلـوم والمعـارف مـا كـان منهـا عربيـا أصـيلا، ومـا كـان مترجمًـا، منقـولاً عـن الأمـم الأخـرى، وكانـت عقليتـه عميقـة الغـور، بعيـدة المنـزع، أفـادت مـن الحكمـة، والفلسـفة اليونانيـة والآداب الفارسـية والهنديـة، كمـا أفـادت مـن تـراث عصـر الجـاحظ وآدابـه، وكـان لـه شـغف كبيـر بالبحـثو عكـوف طويـل علـى الدراسـة، ونشـأته بالبصـرة وتلقيـه عـن العلمـاء فـي حلقاتهـا الذائعـة ومجامعهـا الحافـة وعـن رواة المسـجدين و المربـديين وعـن الأعـراب وجلوسـه إلـى أمثـال النّظـار والأصـمعي وابـن الأعرابـي ....، وكـلّ هـذه العوامـل والمـؤتمرات كـان لهـا أضـخم الأثـر فـي ثقافـة الجـاحظ الواسـعة الجوانـب المتعـدّدة الألـوان[1]، فقـد كـان لشـدّة نهبـه الفكـري يسـتوفي قـراءة كـل كتـاب يقـع فـي يـده فهـو بعـد خروجـه مـن الكتّـاب توسـع فـي مـذاهب الأدب والـدين والعلـم والفلسـفة، علـى أيـدي طائفـة مـن العلمـاء فكـان أثـره واضـحًا فـي نمـو عقلـه، جـاء فـي معجـم الأدبـاء. "سـمع الجـاحظ عـن أبـي عبيـدة والأصـمعي وابـن زيـد الأنصـاري وأخـذ النحـو عـن الأخفـش والكـلام عـن النظـام وتلقـف الفصـاحة عـن العـرب شـفاها بالمربـد"[2]، فلـم يكـن الجـاحظ فيلسـوفا، ولكـن كـل مـا فكّـر فيـه ومعظـم مـا عملـه، إنّمـا كـان بـذهن فلسـفي، لـم يعلـق بتحريـف، ولـم يغـب في دياجير غيب.

1. ثقافته العربية

إنّ الثّقافـة العربيـة مصـدر أصـيل فـي ثقافـة الجـاحظ العامـة، ومنبـع غزيـر مـن منـابع علمـه وألمعيتـه وموسـوعيته وعبقريتـه، ولـم تقـف معارفـه عنـد حـدّ المنقـول، بـل تعدتـه إلـى الأخـذ مـن كـل معقـول، نبـغ فـي الجـدل والبحـث والكـلام والمنـاظرة وفـي الفقـه والحـديث، وكـذلك نبـغ فـي اللّغـة والأدب والشـعر والبلاغـة وغيرهـا، فكـان عالمـا فـوق العلمـاء وأسـتاذا من جهابذة الأدب وكاتبا من أعظم كتّاب العربية.

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 89.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 25، 26.

كـان الجـاحظ يبتكـر ويجـدد، ويطـرق نـواحي مجهولـة مـن جوانـب الثّقافـة العربيـة فكتـب فـي الطّـب والكيميـاء والظـواهر الجويّـة، والطبيعيـة والأخـلاق وعلـم الـنّفس وألّـف فـي المعـادن والأصـباغ، كمـا ألّـف فـي التجـارة، والاقتصـاد وفـي النّبـات، وكانـت هـذه الموضـوعات جديـدة فـي الثقافـة العربيـة، وتعتمـد الكتابـة عليهـا علـى مصـادر غيـر عربيـة وعلـى معـارف كثيـرة عربيـة، وقـد تمكـن الجـاحظ بعمـق ثقافتـه مـن أن يسـتخدم كـل المصـادر الأصـيلة فـي بحوثـه، ويتّخـذ مـن الشّـعر الجـاهلي الإسـلامي والقـرآن الكـريم والحـديث الشـريف مـواد غزيـرة تعينـه فـي التفكيـر والاسـتنباط، وهـو حـين يكتـب ذلـك، يرجـع إلـى المصـادر العربيـة، ولا يقـف فـي دراسـاته عنـد القـديم مـن الثقافـة العربيـة بـل يطـرق أبـواب كـل جديـد مـن الثقافـات، فيكتـب فيـه بغـزارة واسـعة، وتمتـاز ثقافـة الجـاحظ بـالقرار والاستفاضـة والموضـوعية والاسـتطراد، وقـد حـذا حـذوه فـي هـذا المجـال جميـع الأدبـاء والعلمـاء فـي مختلـف العصـور كـابن قتيبـة فـي كتابـه "عيـون الأخبـار"، ولقـد كانـت الثقافـة العربيـة الأصـيلة والمقتبسـة، والتـي تجلّـت فـي كتـب الجـاحظ، دليـل عبقريتـه واضـحة وألمعيـة، فكريـة عميقـة، ومظهـرا لثقافـة الجـاحظ الموسـوعية التـي أثـرت فـي الثقافـة العربيـة تـأثيرا كبيـرا وقرّبـت الفلسـفة إلـى كـل ذهـن وعقـل، فقـد صـاغها الجـاحظ صـياغة أدبيـة عاليـة، وهكـذا اتسـعت هـذه الثقافـة الجاحظيـة لكثيـر مـن ضـروب المعرفـة، حتـى عُـدّ أوسـع أهل زمانه ثقافة.[1]

إن مـن مصـادر ثقافـة الجـاحظ علـوم عصـره الكثيـرة وقـد ألـم بهـا جميعـا، فـإذا بـه فقيـه متكلم ومتفلسـف محـدث، أديـب وعـالم، علـى أن أبـا عثمـان انفـرد عـن أسـتاذه بمقالـة قامـت عليهـا فرقتـه الجاحظيـة فهـو فيمـا يجـاري المعتزلـة فـي أشـياء كنفـي الصـفات علـى الله، والإقـرار بالقـدر، والقـول بخلـق القـرآن، وينفـرد عـنهم بأشـياء كـالقول بضـرورة المعـارف وكونهـا مركبـة فـي طبـاع العبـاد وليسـت مـن أفعـالهم، ونعـرف أنـه فـي العصـر الإسـلامي انتشـر القـول بالقضـاء والقـدر ولعـل نشـوء هـذه الحركـة وتكوينهـا كـان حـول الحسـن البصـري فـي البصـرة، ومنشـأ الاعتـزال كـذلك كـان فيهـا، وسـبب تسـمية المعتزلـة فلـه دلالات عديـدة منهـا أن الحسـن البصـري لمـا فارقـه واصـل بـن عطـاء قـال: "اعتـزل عنـي واصـل."ومنهـا قـول النـاس حينئـذ أن واصـلا وعمـرا بـن عبيـدة الـذي انـتظم إليـه اعتـزلا

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 108 وما بعدها.

قول الأمة، ويمكن حصر تعاليم المعتزلة في نقاط خمسة: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، الأسماء والأحكام، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تفرعت هذه الأصول الخمسة على آراء كثيرة، ومعظمها ردود على بعض الفرق ولابد من ملاحظة أن الحسن وواصل لم ينقلا الفلسفة في أيامها فبقيت كتاباتهما ساذجة، تعتمد البلاغة العربية والفصاحة البدوية، فعلم الكلام مثلا لم ينشأ إلا في أواصل العصر العباسي، بعد أن نقلت الفلسفات إلى العربية، فبرع فيه من برع وكان الجاحظ في الطليعة، فالجاحظ شيخ من شيوخ الاعتزال، انفرد عنهم بآراء خاصة، قامت عليها فرقته الجاحظية، وقد نسب إلى الجاحظ أقوال كثيرة في الاعتزال، ونتيجة هذه الثقافة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى نشوء الاعتزال تكونت مواقف الجاحظ الفكرية والبلاغية وحتى الأدبية.[1]

2. الجاحـــظ والثقافـــة الفارسيـــة

للثقافة الفارسية نصيب كذلك من ثقافات الجاحظ، وقد اتصل أبو عثمان بالثقافة الفارسية بطرق عدّة:

أ) مجتمع البصرة الذي تعيش فيه عناصر فارسية كثيرة وتذيع فيه من الألفاظ واللهجات الفارسية.

ب) الترجمات العربية للكتب الفارسية التي نقلها أمثال بن المقفع، بهران بن مرد وعلي بن زياد التميمي، وما ترجم من الفارسية على يدي بن المقفع "كليلة ودمنة" و"ثعبان التاج" في سيرة أبو شروان وهو كتاب في تاريخ الفرس وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية واضح في كتبه وخاصة كتاب "البيان والتبيان" فهو ينقل فيه كثيرا من النصوص الفارسية، وكان الجاحظ يعرف الفارسية، إذ كان يتكلم الفارسية ويعرف نحوها وأدبها فنراه يقول عن الزرافة لما رأوا أن اسمها بالفارسية "اشتركا وبلنك".[2]

كان الجاحظ يجيد اللّغة الفارسية وفي كتبه نصوص فارسية تدلّ على معرفته بهذه اللّغة،وتوصّل إلى معرفة الترجمات الفارسية، كما أنّه عرّف الفارسية بالدارجة معرفة تفوق معرفة معاصريه لها، وكلّ ذلك يدلّ على أنّ الجاحظ كان يعرف الفارسية

1- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 28-29.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 108 وما بعدها.

فضــلا عــن إلمامــه بالثقافــة الفارسـية المترجمــة، وكــان لهـذه الثقافــة (الفارسـية) أثــر واضــح في أدب الجاحظ وخاصة فكره.[1]

ثقافة الجاحــظ اليونانيــة

اتصــل الجــاحظ بالثقافــة اليونانيــة، وقــرأ علومهــا مــن فلسـفة وحكمــة وغيرهــا، وكانــت الثقافة اليونانية قد انتشرت في الشرق من عهد الإسكندر المقدوني من طرق عدّة:

1- المدارس والمراكز المبثوثة في الشرق وكانت مواطن لهذه الثقافة.

2- اللّغــة السـريانية فقـد تـرجم بعـض اليعاقبـة النصـار ى السـريان الكثيـر مـن كتـب اليونــان إلــى السـريانية، فلمّــا اتصــلوا بــالعرب كــانوا هـم البــادئين بنقـل الكتـب اليونانيــة إلــى العربيــة من لغتهم السريانية.

3- الترجمــات العربيــة العديــدة لأصــول الثقافــة اليونانيــة، فقـد ترجمـت فــي عصــر الجــاحظ كتــب "أرســطو" فــي المنطــق وغيــره، وكــان مــن المتــرجمين عــن اليونانيــة الحجــاج بــن يوسف بن مطر الوراق الكوفي، وثابت بن قرّة.

4- **المعتزلــة:** فقـدت تعلـم بعـض المعتزلـة اليونانيــة، وعكفـوا علــى دراســة كتـب الفلسـفة، والمنطق، واستمدوا منها القدرة على الجدل، والدفاع عن الإسلام وعلوم ثقافته.

5- تشـجيع بعـض الخلفــاء كـــ "الرشـيد" و"المــأمون" ومـن قبلهمـا "المنصــور"، علــى ترجمــة كتب الفلسفة اليونانية وخاصة ما كان منها متصلا بالطب.

6- ترجمــة الكتــب الفارسـية إلــى العربيــة، تسـربت الثقافـة اليونانيـة إلــى لغتنـا لأنّـهـا كانـت قد عرفـت عنـد الفـرس مـن قبـل، هكـذا دخلـت الثقافـة اليونانيـة إلـى العقـل العربـي، فقـد تـأثّر الجـاحظ بهـا تأثّراً كبيـراً وظهـرت آثارهـا فـي كتبـه، ففـي كتابـه "الحيـوان" يتّخـذ منـه أرسـطو مصــدراً مــن أهــم مصــادره ينقــل عنــه كثيــراً ويســتدل بــه كثيــراً، وينقـده كـذلك فــي أحيــانٍ كثيرة.[2]

وثقافــة الجــاحظ اليونانيــة اتّســعت بمجالســته لكثيــرٍ مــن المثقفـين بهــا، ومــن مظــاهر الــرّوح الفلســفية عنــد الجــاحظ: نــذكر لقدامــة حكــيم المشــرق ولأعــين الطيــب البصــري

1- شارل يلا، إبراهيم الكيلاني، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراد، ص 115.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 112-114.

ويقـول: "رأيـت ناسًـا مـن الأطبـاء وهـم فلاسـفة المتكلمـين مـنهم، معمـر، ومحمـد ابـن الجهم وإبراهيم بن السندى".[1]

وقـد ثـار الجـدل حـول مـا إذا كـان الجـاحظ قـد تـأثّر بالبلاغـة اليونانيـة وهـو يضـع أسـس البلاغـة فـي كتابـه "البيـان والتبيـين" فباحـث يـذهب إلـى أن الجـاحظ تـأثّر بخطابـة أرسـطو إلـى حـدٍّ بعيـدٍ، وأنّ مـن المشـابهة بينـه وبـين أصـحاب الخطابـة فـي الأسـلوب استعماله القيـاس المضـمر، وفـي البيـان والتبيـين يـذكر تعـاريف البلاغـة عنـد الأمـم ومنهـا اليونـان والرّومـان، ويـرى اليونـان فلسـفة وصـناعة منطـق ولـيس لفلاسـفتهم فـي الخطابـة ذكر، وأقسام الدلالة عند الجاحظ هي من تفكير أرسطو.

ومهمـا يكـن فـإن الجـاحظ قـد اتصـل بثقافـة اليونـان المترجمـة عـن طريـق المتكلمـين والمحيـدين لليونانيـة، وثقافتهـا مـن غيـرهم مـن عناصـر عربيـة أو غيـر عربيـة، كمـا كـان متوسِّعًا في الثقافة كلّها بما كان يقرؤه من الكتب.[2]

وفاة الجاحظ

فـي خلافـة المعتـز بـالله (252-255) كـان الجـاحظقـد بـات مكـدودًا محطّمًـا، مـن إثـر المـرض والشـيخوخة، وقـد كـان ينتظـر أجلـه صـباحًا ومسـاءًا، وكـان مـع ذلـك لا يـزال يعـيش فـي عـالم الفكـر، الكتـب والقـراءة، وفـي شـهر محـرم مـن عـام 255 هـ، كـان الجـاحظ قـد بـات جسـمًا لا قـوّة فيـه، ولا روحًـا لا يسـتطيع بهـا الـدفاع عـن نفسـه غوائـل المرض والأحداث.

وفـي أمسـية مـن أمسـيات شـهر المحـرم، كـان جالسـا فـي حجـرة كتبـه ومطالعاتـه الغزيرة، فانهالت عليه أكداس الكتب فقطعت أنفاسه[3].

وتـروي كتـب أخـرى أن سـبب مـوت الجـاحظ مـا أصـيب بـه مـن داء الفـالج والنقـرس الشـبيه بـداء المفاصـل، ولا يعـول علـى مـا قيـل إنّـه أصـيب بـذلك لجمعـه بـين السـمك واللّـبن علـى مائـدة أحمـد ابـن أبـي داوود/ مـا لـم يكـن شـديد الحساسـية، بالنسـبة إلـى هـذا الجمـع لا سـيما وهـو كـان يشـكو علتـه، ومـن المعقـول أن تكـون تلـك العلّـة الشـديدة غيـر العلّـة الّتـي

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 116 وما بعدها.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 50.

3- محمد عبد المنعم حفاجي، الجاحظ أبو عثمان، ص 220.

أقعدتـه، إذ كـان يشـكو مـن حصـاة فـي الكلـى لا ينسـرح البـول معهـا، انتقـل الجـاحظ إلـى البصـرة حيـث لقـي حتفـه سـنة مقتـل المعتـز واسـتخلاف المهـدي وهنـاك روايـة أخـرى تفيـد أن سقوط الكتب عليه أخمدت في صدره الأنفاس، وجاء في تاريخ الوردي:

"كان موته بالبصرة وقعت عليه مجلداته المصفوفة وهو عليل فأقعدته"[1]

والجدير بالذّكر أنّه لمّا توفي الجاحظ رثاه أبو شراعة القيسي بأبيات منها:

فـي العلــم للعلمـــاء إن ... يتفهّمـــوه، مـــواعظ
وإذا نسيت وقـــد جمعــ ... ت، علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظّرف دهـرًا ... مــا حــواه إلاّ فـــظ
حتــــى أقـــام طـريقـــه ... عمرو بن بحر الجاحظ
ثـــم انقضــــى أمديــــه ... وهو الرئــيس الفــائظ[2]

لمّـا مـات أبـو عثمـان وصـل نعيـه إلـى قصـر الخلافـة فـي بغـداد وسـرّ مـن رأى فأسـف "المعتـز بـالله" أشـد الأسـف، ورثـاه شـعراء وأنّبـه الأدبـاء واهتـزت البصـرة لوفاتـه، ومـات عـن مائـة وخمـس مـن السـنوات، قضـاها فـي الكتابـة والمطالعـة والدراسـة، والإفـادة والمحاضـرة، والمنـاظرة، وكـان العـالم العربـيعُرف مـن فكـره الحـر وأدبـه الرائـع وكتبـه البليغـة، ولـم يتـرك أبـو عثمـان زوجًـا ولا ولـدًا فلـم يتـزوج طيلـة حياتـه بـل انصـرف إلـى الجـواري، وقـد كـان عقيمًـا فلـم يعـرف أنّـه وُلِـدَ لـه ولـدٌ أو أعقـب ذريـة مـدى حياتـه الطويلـة، وهكـذا مـات أبـو عثمـان وسـط الكتـب الّتـي أحبّهـا طـول حياتـه وكأنّمـا كـان يريـد أن تصـحبه فـي رحلتـه إلـى العـالم الآخـرو أن يـدفن وسـطها،فقد ودّع أبـو عثمـان الحيـاةبعد أن ابتلاهـا خيـرًا وذاق أفاويقهـا، غيـر كـارهٍ لهـا وودّعهـا وودّعتـه عـن سـن عاليـة، فتـرك جـوار النّـاس إلـى جـوار الله وذهـب إلـى مثـواه الأخيـر، يحيط بـه ذكـر ذائـع، وتلاميذ مـلء السّمع والبصـر يقومـون مقام الابن، ويعتزون به أبا روحيا كأعظم ما يكون الأدباء، وأكرم ما يكون الأبناء.[3]

1- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 14.
2- فوزي عطوي، الجاحظ، دائرة المعارف عصره، ص 16.
3- محمد عبد المنعم خفاقي، الجاحظ أبو عثمان، ص 160.

مـــفـــهـــــــــوم الشعـــــــــر عند

الجـــــــــــــــاحـــــــظ

يعود الخلاف القائم حاليا بين النقاد أساسا حول معرفــة الموقــف الحقيقــي للجــاحظ من اللّفظ، والمعنى إلى الخلط الملحوظ أحيانا في تعبيره هو نفســه، عــن هــذه المفــاهيم، فقد كان يطلق معاني ويريد ألفاظا ويفسر مفهوم كليــات ومفهــوم أســماء الــواردين فــي القرآن، وهذا الخلط في التعبير عن المفاهيم لــم يتعــرض لهــا النقــاد علــى مــا يبــدو والحال أنّه يشكل تناقضا صريحا، ولا يمكن التسليم بــه للجــاحظ وأحســن وســيلة فــي اعتقادنا لتفادي هذا السبب هي أن نحاول فهم هذه القضية داخــل نظامــه الكلامــي لــيس هذا فحسب، بل لا بد من مسايرة الجاحظ في مغامرته التي ســلك فيهــا اللفــظ والمعنــى، لأن هذه وإن كانت لا تتوفر فيهــا كــل المتطلبــات المنهجيــة، العلميــة، إلا أنّهــا أكثــر اتصالا بأَنَاه وبالتالي أكثر تعبيرا عن موقفه الحقيقي وهذا ما نعتزم القيام به.(1)

لقد وضّح الجاحظ أنّ مهمــة المــتكلّم الأولــى هــي التبليــغ والتوصــيل، وهــذا لا يخرج عن إطــار الــدورة التواصــلية بكافــة عناصــرها، ولأن المــتكلّم هــو المبــادر بالإرسال، راح الجاحظ يضع له خطوطا تتعلق فــي عمومهــا باختيــار الألفــاظ الســهلة المخارج الدقيقة المعنى وتجنب المعاني البعيدة، والغريبــة اللّــذين يؤديــان إلــى التــوعر والتعقيد، فيجعل ذلك دون الوصــول إلــى المعنــى وتحقيــق المقصــد، وكــذلك احتــرام السياق أو مقتضى الحال على حد قوله، والذي أسس عليــه موضــوعه(2) "فمتــى شــاكل اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقًا ولذلك القــدر لفقًــا، وخــرج عــن سماجة الإكراه، وسام من فناء التكلّــف كــان قيمًــا بحــش الموقــع وبانتفــاع الســامع، وأجدر أن يمنع صاحبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضــه مــن اعتــراض العيــابين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولــة"(3)، فهــذه الشــروط وأخــرى كالإيجــاز

1- محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال كتاب البيان والتبيين، دار الثقافة، الجزائر، ط 1994، ص 139 وما بعدها.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 144.

3- نفسه، ج1، ص 06.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

واستعمال ما قلّ ودلّ من الكلام كفيلة بإنتاج مرسل نموذجي وعمرو بن عبيد كان كذلك لأنّه كان: "لا يكاد يتكلم، وإذا تكلم يصل"[1]، ولكي تكتمل الشروط التي وضعها، حرص على مشاكلة اللفظ للمعنى لتوضيح الدلالة، يقول في ذلك: "كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، أو ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا، إلاّ أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي، من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس طبقات، كما الناس أنفسهم في طبقات"[2].

ومختصر القول أنّ الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الشروط إلى تحقيق السليقة، والطبع التي كان يمتلكها الأعراب الفصحاء الذين طالما أعجب بهم، ففيهم تتحقق الحكمة والجمال والبلاغة وآلة البيان[3].

ولأن الجاحظ كان معتزليا بل من ضمن أئمتهم ما جعله يتبنى نظرة المعتزلة إلى اللفظ والمعنى وربطه بإعجاز القرآن الكريم[4].

لقد قال المعتزلة باصطلاحية اللغة وأثبتوا المجاز في القرآن الكريم واللغة عُمُومًا، واتّخذوه سلاحًا لتأويل النصوص القرآنية التي لا تتفق مع أصولهم الفكرية واعتبروا القرآن مخلوقًا مركبًا من حروف منظومة وأصوات مقطعة، فقد التمسوا إعجازه في نظم الأصوات والألفاظ وحسن تلاؤمها في جماليات الصياغة اللفظية فقد فهم المعتزلة والجاحظ على الخصوص أنّ تراكم التأويلات هو ما يمنح الحقيقة النصية معناها، أي باستئناف الأصل والعودة الدائمة إلى البحث في معاني الألفاظ واستنطاقها عن دلالات جديدة.

1- نفسه، ص 115.

2- نفسه، ج1، ص 144.

3- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 7، 8.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص 8.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

وهنا ينحو العقل التأويلي إلى تحرير التصورات بالكشف عن أسس المعقولية في اللغة نفسها، كما ينحو إلى تجاوز منقولات المنطق الشكلية والعامة بالنظر إلى المنطق نفسه كلغة لها نحوها ووظيفتها ورؤاها[1].

مفهوم المعنى عند الجاحظ

لقد أكّد الجاحظ على أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية وإلى ما جاء به القرآن من أن الكلمات لا تُنقَد، لقد رجع الجاحظ إلى عدة مواضيع لأنها تشكل قاعدة ثابتة يجب اعتبارها والأخذ بها في نظامه هذا، فهو بعد أن ذكر كيف اضطر المتكلمون إلى إحداث ألفاظ لم تكن موجودة من قبل، قال: "إنّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام، حيث عجزت الأسماء عن إتساع المعاني". ويرى أن المعاني الواسعة لا نهاية لها لأنها تمثل جميع الكائنات الحية، التي خلقها الله ثم وضعها في درجة ثانية من السماء التي تعبر عن هذه الكائنات، والجاحظ يصرح أنها عاجزة عن اتساع المعاني، كما صرّح في موضوع آخر بأنّها مقصورة وأخيرًا الألفاظ التي تجيء بها لسد عجز الأسماء وتكميل ما بها من نقيض[2]، وهناك جانب يهم اللفظ والمعنى لا بد من التعرض له لتكمل الصورة وهو:

رمزية المعنى واللفظ

إنّ أحسن وسيلة للاطلاع على موقف الجاحظ الحقيقي من اللفظ والمعنى يجب التماسها لا من صريح لفظه فقط وإنما وراء ألفاظه ومواقفه الرسمية، وهذا لا يمكن إلا بالدخول معه في رمزيته، ومتابعته في مواطن سره، وهذه الرمزية عند الجاحظ

1- هيثم سرحان، إستراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003، ص 35.

2- محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية، ص 140.

مـــفـــهـــــــــوم الشعــــــــــر عند

الجــــــــــــــــــاحــــــظ

نفسه هو الذي دلنا عليها، فهو يقول علـــى لســـان أحـــد الربّـــانيين مـــن الأدبـــاء وأهـــل المعرفة: "فقد صارت الألفاظ من معـــاني المعـــارض وصـــارت المعـــاني فـــي المعنـــى الجواري وجعل المعاني جواري لـــيس تشـــبيها عـــابرا كمـــا قـــد يتفـــق لأي كاتـــب أو شاعر، إنها هي فكرة راسخة في ذهنــــــــــــــه".[1]

وكتاب البيان والتبيين فيه من أمثلة عن ذلك ما هـــو جـــدير بدراســـة مســـتقلة ومـــن المواضع التي كانت المناقشات البلاغية يـــدور حولهـــا موضـــوع الحـــق البـــاطني الـــذي يخفى عن العامة، حتى أنهم إذا وجدوا من البلاغيين مـــن يظهـــره لهـــم فهمّـــوا أن الحـــق الغامض قد يظهر أحيانـــا فـــي صـــورة الباطـــل لمـــن لا يســـتطيع الغـــوص لإخـــراج المعاني، ولذلك نجد الجاحظ يناقش قول العتابي: "البلاغة إظهار مـــا غمـــض مـــن الحـــق وتصوير الباطل في صورة الحق".[2] ويختار مجموعـــة مـــن الأخبـــار والأشـــعار التـــي تدور حول المعنى نفسه كهذا البيت الذي يجعل اللفظ صحيفة والمعنى لبّا:

وفي الصمت سِترٌ للغيّ وإنّما   صحيفة لبِّ المرء أن يتكلّما

وهناك مقطع آخر ساقه الجاحظ يدل دلالـــة واضـــحة علـــى تفضـــيل الباطـــل علـــى الظاهر نورد بأكمله، لأنه ساعدنا على حل مشكل آخر كثر حولـــه النقـــاش بـــين النقـــاد، وهو معرفة الفرق بين الفصل والوصل حين يقول:

تـــــــــــرى الفتيـــــــــان كالنحـــــــــــــل   ومـــــا يدريك ما النحل

وكل في الهـــــــــــوى ليـــــــــــث   وفيهـــــــــــــــــــا

نـــــــابـــــــه فـــــــــــــشل

وليس الشأن في الوصل   ولكن أن يرى الفصل

ويمكن تصنيف معنى هذه الأبيات بالاعتماد علـــى الســـياق الـــذي وردت فيـــه وهـــو كالتالي:

1- نفسه، ص 150.

2- المرجع السابق، ص 151.

مـــفـــهــــــــــــوم الشعــــــــــــر عند

الجـــــــــــــــاحـــــــــظ

الحق ———————◄ الباطل

المعنى———————◄ اللفظ

داخل النحل ————◄ ظاهر النحل

الفصل———————◄ الوصل[1]

تعريف اللفظ

يعتبره الجاحظ أرقى وسائل البيان، ولما كانت للفظ أهمية كبيـــرة توســـع فيـــه وبـــيّن كيف يكون شكله مفردا أم مركبا؟ وأيـــن تكـــون اللفظـــة فـــي الكـــلام مقبولـــة، وأيـــن لا تكون؟ وهكذا وضع الجاحظ الأسس الأولى للبالغة العربيـــة وجعـــل اللفـــظ للســـامع وهـــو الكلام المنطوق الذي يعتبره إشارة ودلالة، وبذلك يتضح أن اللفـــظ هـــو الكـــلام المســـتقل والمركب في وحدات وظيفية ترتبط بعضها ببعض مـــن حيـــث علاقتهـــا بـــالمحيط الـــذي تعبر عنه، ولا يحصل البيان دون هذه الألفاظ.

الجاحـــــظ وقضيـــــــــة اللفـــــــــظ والمعنى

اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في النقـــد الأدبـــي، وهمـــا ركنـــان رئيســـيان مـــن أركان القصيدة، بل يعدّهما المحدثون ركنا واحدا، وقـــد شـــغل بهمـــا النقـــاد والبلاغيـــون القدمى كثيرا، فكانتا من أعقد القضايا النقديـــة قـــديما، وأكثـــر قضـــايا النقـــد اضـــطرابا على الرغم من عناية أولئك النقاد بها، وقد عرضوا لهـــا فـــي الأدب عامـــة، غيـــر أنهـــا انعكست على الشعر فأدخلها بعضهم في منهج القصـــيدة وكيفيـــة نظمهـــا[2]، وقـــد نشـــأت قضية اللفظ والمعنى في الأوساط الكلامية التـــي جعلـــت مـــن القـــرآن الكـــريم محـــورا

1- المرجع نفسه، ص 151

2- حميد آدم أثونبي، منهج النقد الأدبي عند العرب، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004، ص 69.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

لدراستها في إطار دفاعها عن القضايا الاعتقادية، وفي هذا المجال اتجه المعتزلة إلى تفسير القرآن تفسيرا بيانيا بالاستناد إلى المجاز بوصفه وسيلة من وسائل التعبير، وفنًّا من فنون القول له أمثاله في الشعر القديم وألحّوا على تجريد المعنى القرآني والابتعاد عن أشكاله الظاهرية، وما لها من دلالات محسوسة تتنافى مع الأصل العام للتوحيد، وانقسم النص القرآني نتيجة لذلك قسمة واضحة، فأصبح هناك معنى مجرد قائم بذاته، وصورة مجازية هي بمثابة أوجه الدلالة على المعنى، وقد يكون لهذه الصورة أثرها في إقناع المتلقي أو استمالته، ولكن المعنى القرآني قائم بذاته، ومستقل عنها وله هيكله الذهني المجرد الذي يمكن فصله عن كل ما يدل عليه من صورة مجازية[1]، وتعالج قضية اللفظ والمعنى بنية العمل الأدبي وصياغته الشكلية، والمعنوية ومنطلق قضية اللفظ والمعنى هو التساؤل عن سر إعجاز القرآن الكريم، هل هو في لفظه؟ أم في معناه؟ كذلك جاء التساؤل في العمل الأدبي هل تكمن ميزته في لفظه (أي شكله) أم في معناه (أي مضمونه)، ويعتبر الجاحظ أوّل بياني أثار القضية، ودشّن النقاش فيها، ويبدوا أنّ النّاس كانوا قبل أبي عثمان الجاحظ يصرون على النظر إلى المعنى قبل اللفظ، أي إلى المضمون قبل النية، أي إلى المدلول قبل الدال على ذلك أنهم كانوا يشعرون الشاعر ببيت واحد من كل شعره، فإذا فصلوا ودققوا فبيت واحد في كل قصيدة من قصائده، فكانوا يعدون مثل هذه الأبيات الجيدة في نظرهم أرقى ما جاءت به قريحة الشاعر، وأسميها بـ (بيت القصيدة)، وكتب التراث العربي شاهدة على ذلك[2]، لذا صار

1- عبد القادر هني، نظرية إبداع في النقد العربي القديم، دار الثقافة، الجزائر، د.ط، 1999، ص 40.

2- عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجات يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003، ص 03.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

رأي الجاحظ في هذا الموضوع منطلقا وبداية لكل من يريد الخوض فيها[1]، حيث يقول: "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنّما الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك..."[2]، أطلق حكمه هذا على بيتين قالهما شاعر في حضرة أبي عمرو الشيباني عندما سمع يوم الجمعة بالمسجد قائلا يقول والجاحظ وأصحابه حول أبي عمرو:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

فأمره من احضره دواةً وقرطاسًا حتى كتبهما له، وقد عجب الجاحظ من سوء ذوق الشيباني وكيف ذهب إلى عد هذين البيتين الرديئين من الشعر العربي. إن الأمر الذي زاد في تثبيت ثنائية اللفظ والمعنى، هو اتجاه بعض المتكلمين إلى ربط قضية الإعجاز القرآني بجانب النظم والصياغة واتجاه بعضهم الآخر إلى ربطها بالمضمون[3] ولم تكن قضية اللفظ والمعنى تكسب شهرتها لولا اتصالها بسر إعجاز القرآن الكريم[4]، فالجاحظ لم يتابع أستاذه النظام في قوله بالصرفة تفسيرا بالإعجاز، وإنما وجد أن الإعجاز لا يفسر إلا عن طريق النظم، ومن آمن بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى نظرية تقديم المعنى على اللفظ، ومنها أنّ عصر الجاحظ كان يشهد حملة عنيفة يقوم بها النقاد

1- ابتسام مرهون، ناصر الحلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص 141.

2- الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 142.

3- نفسه، ص 131.

4- عبد القادر هني، المرجع السابق، ص 40.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، ولا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرّد على هذا التيار مرتين: مرة بأن يقرر أن الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعا،و مرة بأن لا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه. ولهذا فإن الجاحظ كان يحس أن المعاني موجودة في كل مكان[1]، وفي الميدان الأدبي يعتبر الجاحظ أول من أثار جدلية اللفظ والمعنى في مقولته المشهورة (والمعاني مطروحة في الطريق...)، فقد أبدى فيها مفهومه لقضية اللفظ والمعنى، والذي تبين أنه لم يكن من أنصار اللفظ على المعنى، ولا من الذين عنوا بالصياغة، والأسلوب، فحسب، كما أنه عني بالنص الأدبي بكل ما يحمله من معان عبَّر عنها بالألفاظ، وأساليب، وأوزان، فالنص الأدبي الجيد هو ما كانت أفكاره، ومعانيه جيدة مقبولة في النفس، وكان أسلوبه جيدا وجميلا، ومؤثرا، وإذا انفرد بإحدى هاتين الميزتين دون الأخرى أصابه الخلل، وخرج عن إطار النجاح الفني[2].

أما عن عناصر الأدب الجيد فهي:

أ) إقامة الوزن: أي اختيار الأوزان المناسبة للمعاني المطروحة.

ب) تخير الألفاظ وسهولة المخرج: وهذا مبحث أفاض فيه الجاحظ، حيث ذكر من شروط الألفاظ الجيدة حسن اختيار الألفاظ لها، سواء مطابقتها للمعاني أو في تصويرها لبيئة الشاعر أو حياته.

ج) كثرة الماء وصحة الطبع: ويريد بهما بعد الشاعر عن الافتعال المصطنع، وقد أطلق العرب تعبير كثرة الماء كناية عن الحيوية والجمال، وقد قرنه الجاحظ هنا بصحة الطبع، ليجعله عنصرًا من عناصر النص الأدبي الجيد، فكما يتفنن الصانع في صناعته، والرسام، والنسّاخ في اختيار مواد رسمه أو نسجه، كذلك الشاعر يختار لنفسه الأسلوب الذي يحمل عناصر النجاح المتمثلة في المعاني،

1- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 98.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص، ص، 7، 8.

مــــفـــــهـــــــــــوم الشعــــــــــر عند الجــــــــــــــــاحــــــظ

الصياغة، والروح الشاعرية، المناسبة الدالة علــى طبــع شــعري مــواتٍ[1]، لقــد قــرن الجاحظ هذه العناصر الثلاثة معا في قولــه: "إذا كــان المعنــى شــريفا، واللفــظ بليغــا، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه صنع فــي القلــوب صــنع الغيــث فــي التربــة الكريمة ..."[2].

وهكذا نجد خلاصة رأي الجاحظ في النص الجيد بكونه يعبــر عــن معنــى جميــل، شريف بألفاظ مؤلفة غير متنافرة، لقد انتصــر الجــاحظ لمذهبــه الاعتزالــي أيــن نظــر لقضية اللفظ والمعنى ورد الإعجاز في القرآن لجانب اللفــظ واهتمامــه بــه، ولكــن مــع عدم إهمال المعنى وإغفاله، كــذلك المعتزلــة، فنجــد العتــابي يقــول: "الألفــاظ أجســاد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قــدمت منهــا مــؤخرا أو أخــرت منهــا مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضــع يــد، أو يــد إلــى موضع رجل، لتحولت الخلقة وتغيرت الحيلة".

فالجاحظ من أنصار الفئة التي لا تركز على المعنى ولكنهــا تهــتم بالمقابــل بــاللفظ وحده،فهو يعتبر رئيسا لهــذه الفئــة قــال: "حكــم المعــاني خــلاف حكــم الألفــاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلــى غيــر نهايــة وأســماء المعــاني مقصــورة معدودة، ومحصلة محدودة"[3]، كما يوحي إلى أن الصــوت هــو آلــة اللفــظ، والجــوهر الذي يقوّم التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكــون حركــات اللســان لفظــا، ولا كلامــا موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، فعلى ذلك يبنــي نظريتــه المعروفــة: "والمعــاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، والبــدوي، والمــدني، وإنمــا الشــأن فــي إقامة الوزن، وتخير اللفظ وصناعة، وضرب مــن النســيج وحســن مــن التصــوير"[4]،

1- ابتسام مرهون، ناصر الحلاوي، المرجع السابق، ص 145.

2- الجاحظ، المرجع السابق، ص 82.

3- مليكة حفان، إعجاز القرآن بين مبادئ اللغة وأصول العقيدة، www.dinanalarab.com، ص 40.

4- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 69، 70.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

فالجاحظ اهتم بالفصاحة اهتماما شديدا، فدراسته للألفاظ من أوسع ما وصل إلى العصر الحاضر من عهده، فقد تكلم عن ملائمة الألفاظ، وتماثلها، فرأى أن اللفظ لا ينبغي أن يكون عاما وساقطا سوقيا، كذلك لا يجب أن يكون غريبا وحشيا، فتلك العناية باللفظ دعته إلى أن يقول: "والمعاني مطروحة في الطريق".

إن الجاحظ قد ثمن النص الأدبي من خلال إثارة اللفظ على المعنى، فنقل النقد من الدراسات القرآنية إلى ميادين الدراسات الأدبية، وبذلك عدّ أنه:

1- من أوائل الذين وضعوا مقاييس اللفظ حينما تكلّم عن تنافر الألفاظ.

2- فصل بين اللفظ والمعنى، فقد جعل للألفاظ جهابذة عارفين وللمعاني نقاد في قوله: "قال بعض جهابذة الألفاظ، ونقاد المعاني القائمة في صدور الناس"[1]، والمتمعن في قول الجاحظ والناقد المجيد الذي يفهم الآراء النقدية، يرى عكس ما ذهب إليه النقاد، فإذا ما أردنا أن نفسر ما قصد إليه الجاحظ الذي لا ينحاز إلى الألفاظ وحدها، ولا إلى المعاني وحدها، لن نقول أكثر مما قاله الناقد عبد القاهر الجرجاني الذي سبق المعاصرين في تأويله وتوضيحه بعد أن فهم الناس له قديما يقول: "إعْلَمْ أنه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذي يسري في العروق ويفسد مزاج البدن... وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساسا وبنوا على قاعدة، فقالوا إنه ليس المعنى واللفظ، ولا ثالث، وأنه كان كذلك وجب إذا كان أحد الكلاميين فضيلة لا تكون لآخر... ولمّا اقرّوا في نفوسهم حملوا كلام العلماء فيما نسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها، نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ، مثل قولهم: "لفظ متمكن غير قلق ولا باب به موضعه.."[2].

1- الجاحظ، الحيوان، ص 70.

2- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 142.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

ولمّا لم يكن فهم الناس دقيقا لها ذهب إليه الجاحظ، كما كشف عبد القاهر كثرة أنصار اللفظ كثرة مفرطة بعد الجاحظ حتى قال ابن رشيق: "أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى..."[1]، ولم يفصل الجاحظ بين قيمة المضمون والشكل أو بين اللفظ والمعنى، إذ لا يوجد شكل مجرد ولا مضمون خارج نطاق الشكل بكل ما دعا إليه، هو إيجاد الشكل المثالي للمضمون، ثم صياغة كل ذلك في أسلوب ممتاز وموسيقى مؤثرة، ولعل أوضح النموذج لذلك التصوير الفني الكامل لوصف الذباب عند عنترة ابن شدّاد قال: "ما كان عنترة في صفة الذباب فإنه وصفه فأجاد وصفه فتحاشى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم، وقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى وفي اضطرابه أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر"[2].

يريد الجاحظ من الشاعر أن يرسم بوضوح وان يصور بقوة، فهو يشبه الناقد الفني الذي يميل إلى رسم المصورين الكلاسيكيين ولا يرغب في الرسم الانطباعي الذي لا يكون واضح المعالم ولذلك فإن الإفراط عند رسم الصورة الشعرية يجعل الجاحظ شديد النفرة منها، ويتضح عنده الميل إلى المضمون أكثر من الشكل قال: "والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال الشاعر:

وكأنَّما وجهدت إليه إلا أن تمس الأرض أربعه[3]

ما معنى قول الجاحظ (المعاني المطروحة في الطريق)؟ أترى هذا حطًا من قيمة المعنى الذي يجعل له الجرجاني في المقام الأول هنا ينقد الجرجاني بفهم دقيق إلى سر مشكلة طال حولها الأخذ والرد، فوجه رأي الجاحظ توجيها ملائما لما نعتقد أن الجاحظ رمى إليه، فمصطلح (معنى) كما استعمله الجاحظ ذو دلالة دقيقة، فهو

1- نفسه، ص 143.

2- نفسه، ص 145.

3- حميد آدم أثويني، المرجع السابق، ص 73.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

إنما يتحدث به عن الأدوات الأولية وتفسيرا لذلك يقارن الجاحظ بين الكلام ومادة الصانع فهو يضع من الذهب أو الفضة خاتما، فإذا أردت الحكم على صنعته وجودتها نظرت إلى الخاتم من حيث أنه خاتم، ولم تنظر إلى الفضة أو الذهب الذي صنع منه، فهذه المادة الأولية تشبه المعنى المطروح وليس فيها تفاضل إن شئت أن تحكم في جودة الصنعة نفسها ولهذا قال الجاحظ بعد أن أورد رأيه في شيوع المعاني: "إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيير اللفظ وسهولة المخرج ..."[1]، وإنما الذي دعا إليه الجاحظ وإضرابه إلى تبيّن هذا المذهب خوفهم من فكرة الإعجاز فلو أن الفضل كان قاصرا على تلك المادة الأولية التي سميت (معنى) بطل أن يكون للنظم فضل تتفاوت به المنازل، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز، ... أي أصبح الإعجاز أن يحتوي الكلام على حكمة واستخراج معنى غريب أو شبيه نادر، وفي هذا تسوية بين القرآن وأية مهارة ذهنية إنسانية[2]، وعلى أساس هذا التفسير يكون الناس الذين ظنوا أن (المعنى) في نظرية الجاحظ يشير إلى عدم التفاوت في (العملية الفكرية) القائمة وراء البناء الفني قوما مخطئين في تصويرهم، فهم قد أساؤوا فهم ما رمى إليه الجاحظ، لأنه لم يتجاوز ما يعنيه (المادة الأولية) التي تتولاها الرؤية بالصياغة، فخلطوا بذلك بين تلك المادة الضرورية المشاعة، وبين الرؤية الفكرية التي تؤسس وحدة كاملة من اللفظ والمعنى تأسيسا متفاوتا في القدرة على التأثير، فأرجعوا الفضيلة إلى اللفظ وحده[3].

يقول الجاحظ: "إن متمعن النظر في علاقة التقابل بين الثوب الرفيع والآخر الوضيع يلحظ أن القيمة والجمال مقابلان للقبح وللضعف، فكأن القيمة والضعف

1- الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 165.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 162.

3- أحمد الوردوني، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2004، ص 390.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

منصرفان إلى المعنى، والجمال والقبح منصرفان إلى اللفظ، إن فكرة الثمن سواء أكان درهما وثلثا أم آلافا، موصولة بالمعنى ومدى ما يتوفّر عليه من فائدة، أمّا جمال الهيئة وجدتها أو قبحها فموصولان باللفظ ومسالك الأداء التعبيري، إذا خلا المعنى من القيمة انعدمت الفائدة، وإذا زالت الجمالية من اللفظ لم يعد له في النفس أثر"[1].

وفي متابعتنا للنتائج التي تترتب على نظرية الجاحظ في غريزية الشعر وعرقيته، نصل إلى مسألتين هامتين، أولى تميزه ضمن الذين يتكلمون بلسان العرب بين العرب والمولودين، والثانية تميزه بين العرب كأمة وغيرهم من الأمم الأخرى، من ناحية واللغة العربية وبقيت اللغات من ناحية ثانية[2].

ويروي الجاحظ ما يوضح هذا الفرق على لسان إبراهيم بن هاني، وهو يقول: "من تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا"[3]، ويقول الجاحظ كذلك مؤكدا هذا الفرق: "ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظ مسخوطة ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رديئا ولا قولا مستكرها"[4].

ليس غريبا في هذا المنظور أن يصل الجاحظ إلى القول أن: "بلاد الأعرابي الخلص معدن الفصاحة التامة"، وللفصاحة مجرى معيّن كما يعبر الجاحظ، فإن العتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته، والمصروف من حقه، أنّه محكوم له بالبلاغة كيف كان، فمن زعم أن البلاغة

1- نفسه، ص 391.

2- ينظر، أودنيس، الثابت والمتحول، تأصيل الأصول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1977م، ص 48، 49.

3- أدونيس، الثابت والمتحول، ص 49.

4- أدونيس، المرجع السابق، ص 51.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء، وكله بياناً... وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء، فالبلاغة ليست مجرد الإيصال والإفهام، وإنما هي الإيصال والإفهام بمقتضى الفصاحة العربية وأصولها، والفصاحة لغة لا فكر، أي لفظ لا معنى، أو هي كما نقول اليوم شكل لا مضمون، ومن هنا يميز الجاحظ بين اللفظ والمعنى، ويجهل الأهمية الأولى للفظ[1].

لم يفصل الجاحظ بين اللفظ والمعنى إلاّ ليؤكد فرادة اللغة العربية وتميزها، وكأنه أراد أن يقول أن الإنسان لا يتميز بالمعاني التي يعبر عنها، بل يتميز باللغة التي يعبر عنها، فالمعاني عامة مشتركة أما اللفظ فمقصور خاص، والقيمة الأخيرة لثقافة شعب ما، تنبع مما هو خاص به، مقصور عليه، لا مما هو علم مشترك إذ لا سبيل إلى معرفة إمتيازه، وتفرده الثقافتين، أي عبقريته الخاصة إلا بمعرفة الشيء الذي يفرده عن سواه، وهذا الشيء بالنسبة إلى العرب هو اللغة، أو هو بتحديد أدق الشعر.

وانطلاقا من هذا الفصل بين اللفظ والمعنى، يؤكد الجاحظ القضايا التالية:

أولا: مشاعبة المعاني، ولا نهايتها، حتى أن الجاحظ يكاد أن يوحي بالقول أن المعاني ليست موضع جدل فهي تشبه الهواء الذي يتنشقه الجميع ولذلك ليست المسألة أن نسأل ماذا قال الشاعر؟ بل أن نسأل كيف قال؟ أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني (الألفاظ) مصورة معدودة، ومحصلة محدودة[2]، ولهذا فإن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، وعلى هذا ترتب نتيجتان:

1- المرجع السابق، ص 52.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 470.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

-**الأولى:** ليس هناك أحد من الشعراء أحق بالمعنى من غيره إذ لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب، عجيب أو في معنى كريم شريف أو في بديع مخترع، ألا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه، أن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإن لا يدع يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعارض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه[1].

-**والثانية:** هي أن المعاني ثابتة أبدًا، صالحة أبدًا كالألفاظ فليس في الأرض لفظ يسقط البتة ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن، وهذا يعني أنّه لا عيب في ترداد المعاني وبعض الألفاظ.

ثانيا: المشاكلة بين المعاني وألفاظها، ولئن كانت المعاني مشاعة أو مبسوطة، فإنّ على الألفاظ أن تكون هي كذلك مبسوطة، وهكذا لا يحق للشاعر أن يهذب لفظه جدًّا وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، واسقط زوائده حتى عاد خالصا لا تشوب فيه، لأنّ النّاس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم[2].

والمشاكلة بين الألفاظ والمعاني، من ناحية المبدأ العام تتضمن مشاكلة بين اللفظ والغرض الذي يحمله المعنى، فلكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإذا كان موضع الحديث على أنّه مضحك وداخل في باب المزاج والطيب، فاستعملت فيه الأعراب، انقلبت من جهته. وإن كان في لفظه سحق

1- نفسه، ص 471.

2- نفسه، ص 472.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس، يكربها. ومن هنا كان الأعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام، إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللّغة وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر – الذي إنّما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه– حروف الأعراب والتحقيق الثقيل وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته[1].

وهذه المشاكلة النوعية بين اللفظ والغرض، تقترن بمشاكلة كمية بين أقدار المعاني وأقدار الألفاظ، وإنّما على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة، البائتة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة[2].

ثالثا: الشكلية، أو الأسلوبية وهي براعة الشاعر الخاصة وفرادة الطريقة التي يعبر بها: لكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظًا بأعيانها، ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ، لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بضاعتهم، إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة، والنسجة التي يصل إليها الجاحظ هي: "لكل صناعة شكل"[3].

ولعل خير ما يوضح هذه الشكلية التي يقول بها الجاحظ مثلٌ يضربه فيشبه المعنى بالجارية، واللفظ بالثوب، فالجارية موجودة، بقوة الحياة والواقع، وإنّما الشّأن والجهد في كيفية عرضها وإبرازها، صارت الألفاظ في معنى المعارض (الملابس

1– الجاحظ، البيان والتبيين، ص 473، 474.

2– نفسه، ص 52.

3– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 473.

مــفــهـــــــوم الشعـــــــر عند الجـــــــــــــاحـــــظ

الجميلة)، وصارت المعاني في معنى الجــواري، فالشــكلية لا تعنـــي التّكلــف والمبالغـــة والتعقيد مما يطمس حسن المعنى، تمامًـــا كمـــا تطمـــس الثيـــاب المفرطـــة فـــي تأنقهـــا وبهرجتها، حسن الجارية، أنّ الشكلية كمـــا يفهمهـــا الجـــاحظ تـــرادف الطبـــع، أو هـــي الطبع بالذات، وأن يكون الشعراء مطبـــوعين يعنـــي أن المعـــاني تـــأتيهم ســـهوًا رهـــوًا وتنثال عليهم الألفاظ إنثيالاً، أي تتدفق عفوًا بلا تكلف[1].

اللفـــــــظ والمعنى عند النقـــــــاد القدامى

* **اللفـــــــظ والمعنى عند ابن قتيبة:** تـــدل مؤلفـــات ابـــن قتيبـــة علـــى تعـــدد مناحي اهتمامه، فبعضها يمثل العناية بغريـــب اللغـــة وبعضـــها يتنـــاول النحـــو، كمـــا أن صنفا ثالثا منها مستلهم من عصبيته لأصحاب الحـــديث ومـــن عدائـــه للمعتزلـــة، ويمثـــل الشعر ميدانا رابعا من تلك الميادين التي اســـتأثرت بجهـــده، وعلـــى الـــرغم مـــن تعـــدد ضروب هذا النشاط فإننا نستطيع أن نســـتبين مـــن وراء هـــذا الجهـــد حـــوافز وغايـــات معينة، فابن قتيبة يكمل دور الجاحظ في الـــدفاع عـــن العـــرب والـــرد علـــى الشـــعوبية ويتخذ هذا الرد صورة مباشرة في مثل (كتاب العرب وعلومهـــا)[2]، ويعتبـــر ابـــن قتيبـــة من النقاد الّذين أُولُوا عناية فائقة لقضية اللفظ والمعنى، فهـــو يـــرى أن لكـــل مـــن اللفـــظ والمعنى مدلوله الخاص، فمدلول اللفظ عنده يريد به النّظم والتـــأليف الممثـــل فـــي اللفـــظ المفرد والوزن والروي، فحسن اللفظ إنما يعنـــي صـــحة الـــوزن وحســـن المعنـــى، فهـــو يعني الفكرة التي يتبين عنها البيت، فهو يعلّق علـــى بيتـــين للمـــرقش عـــدّهما الأصـــمعي من مختاراته:

هل بالديـــــار أن تجيب صـــــــــمم   لـــــــــــــــو أنّ
حيّـــــــــــــا ناطقـــــــــــــــــا كــــــــــلّم

1- المرجع السابق، ص 474.

2- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 104.

مــفــهـــــوم الشعـــــر عند

الجــــــاحـــــظ

يـــــأبى الشبـــــــاب الأَقْـــــوريـــــــن

ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

فيعلق ابن قتيبة على هذين البيتين فيقول: "والعجيب عندي من الأصمعي إذ ادخله في متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروي ولا متخير اللفظ ولا لطيف المعنى..."[1]، من أبرز الفروقات بين الجاحظ وابن قتيبة هو اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللفظ والمعنى، فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ، ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية ولهذه القضية ركنان (اللفظ – المعنى) وميزان (الجودة – الرداءة)، ولا بأس أن يتجه ابن قتيبة في نحو هذا المنطق –وإن كان يكرهه علما– فيجد أن الشعر أربعة ضروب لا تسمح العلاقة المنطقية – في نظره– بأكثر منها:

أ. لفظ جيد ومعنى جيد

ب. لفظ جيد ومعنى رديء

جـ. لفظ رديء ومعنى جيد

د. لفظ رديء ومعنى رديء

وقد استعملنا لفظتي (الجودة والرداءة) وإن كان ابن قتيبة لم يستعملهما وإنما استعمل أحيانا : (ضرب حسن لفظه فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى أو ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه)[2]، ولم يستعمل لفظتين حاسمتين في دلالتهما وإنما فعل ذلك ليكون أبعد عن الحدة التي تستشف من قولنا (جيد ورديء) وآثرنا إلزامه بلفظتين لكي لا تضطرب عليه القسمة المنطقية، فالمسألة إذن مسألة صلة بين اللفظ والمعنى وعلاقة الجودة في كليهما معا هي المفصلة وهذا يعني أن المعاني نفسها تتفاوت، وإنما ليست كما زعم الجاحظ (مطروحة في طريق)،

1– قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة طرابلس، لبنان، ط1، 2003، ص331.

2– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 108.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

ويستشف من أمثلة ابن قتيبة أن المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة، ولكن هذه الأمثلة نفسها تشير إلى أنه يستمد حكمه من بيت واحد أو بيتين أو ثلاثة في الأكثر.

إن قضية (اللفظ والمعنى) لن تتناول العمل الأدبي كله بحيث تتطور إلى ما نسميه (الشكل والمضمون)، ولا هي استطاعت أن تقترب مما قد يسمى (الصلة الداخلية) بين هذين، ولعلها كانت ذات أثر بعيد في صرف النقد عن تبين وحدة الأثر الفني في مبناه الكلي، غير أنها رغم ذلك أسلم من الانحياز السافر إلى جانب اللفظ[1]، وإلى جانب معادلة اللفظ والمعنى وقف ابن قتيبة عند قسمة ثنائية في النظرية الشعرية، فقد كثر الحديث في عصره عن الطبع والتكلف، دون تحديد لهذين المصطلحين، فتناولهما بن قتيبة بالتفسير والتمثيل، وقد خفي على الدارسين المحدثين أن قلة (المصطلح النقدي) لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هاتين اللفظتين بمدلولات مختلفة، فالتكلف حين يكون وصفا للشاعر مختلف عن التكلف حين يكون وصفا للشعر[2]، ويشرح لنا بن قتيبة كيف يظهر التكلف في الشعر والشعراء، خصوصا عندما ينظر فيه العلماء فيقول: "والمتكلف من الشعر، وإن كان جيّدا محكما، فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر، وشدّة العناء ورش الجبين، وكثرة الضروريات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة بالمعاني غنى عنه"[3].

ويذكر ابن قتيبة سمة للتكلف في الشعر – سوى رداءة الصنعة– وتلك السمة (أن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه) وهذا مقياس هام لأنّه أول الطريق إلى الوحدة الكلية في القصيدة عامة، وفقدان "القرآن" بين الأبيات

1– نفسه، ص 109.

2– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 109.

3– قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، ص 332.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

ليس من صفات شعر المنقحين، ومن ثم يتضح لنا تماما أنّ لفظة المتكلّف إذا اقترنت بالشاعر عنت شيئا متميزا عن معناها حين يوصف بها نوع الشعر ولذلك قال ابن قتيبة في وصف أبيات للخيل: "وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة"[1]، وتقابل لفظة (الطبع) ما سمّاه الجاحظ (الغريزة) وهذه الثانية ترد عند بن قتيبة أيضا إذ يقول في تعليله عسر قول الشعر: "إنه قد ينشأ من عارض يعترض على الغريزة" أي يؤثر في الطبع*.

اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني

يعتبر الجرجاني من البلاغيين الأقدمين، الّذين اهتموا بمسالة اللفظ والمعنى، وأولاها عناية فائقة، فقد قام بإصلاح مسار الدرس البلاغي، وكان له الفضل في وضع علمي البيان والمعاني، ومبينا أن بلاغة القرآن إنما تكمن في أساليبه ونظمه، لذا فقد اعتبر عبد القاهر الجرجاني مرحلة جديدة هامة في تاريخ الدراسات البلاغية العربية. إن قضية اللفظ والمعنى عند الجرجاني كانت وليدة القرآن، والجدال الذي أثير حول إعجاز الكلام الرَّباني، لذا كان لزاما علينا رصد ملامح هذه المسألة والإفادة من الجهود والآراء السابقة لفترة عبد القاهر مبينين أن الجرجاني كان له السبق في هذا الميدان لذلك يرى كثير من الباحثين أن البلاغة العربية قد استقرت أركانها وقُويت دعائمها، ووصلت إلى قمة نضجها على يد عبد القاهر الجرجاني خاصة من خلال كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

فقد كان شغوفا بالعلم والمعرفة ولا أدل على ذلك قوله في بداية كتابه (دلائل الإعجاز) عن العلم وفضائله، الذي تميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات: "لأننا إذا تصفّحنا الفضائل لتعرف منازلها في الشرف وتبين مواقعها من العظم، نعلم أيّا أحق منها بالتقديم وأسبق في استجاب التعظيم، وجدنا العلم أوّلها بذلك وأوّلها هناك

1- نفسه، ص 333.

* الطبع: قوة الشاعرية أو الطاقة الشعرية وقد تعني أيضا المزاج.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

... هو الوفي إذا خان صاحب، والثقة إذا لم يوثق بناصح لولاه"[1]، إلى أنّه يقول: "فهذا في فضل العلم لا تجد عاقلا يخالفك فيه"[2].

دلائل الإعجاز وعلاقتها بقضية اللفظ والمعنى:

في خضم تطرقه لنظرية الإعجاز، بسّط كل مباحث علم المعاني والبيان، أصلا قائما على اللفظ والمعنى، وعلى نظمهما، نظمًا منسجما، ورغم التباين في الرؤى للقضية، إلاّ أنّ الجرجاني لم يكن منحازا لأي مذهب بل نظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على المعاني في النظم مؤسسا لذلك نظرية في النظم[3]، هذه القضية المبنية على عنصري اللفظ والمعنى، فقد ربط بينهما ربطا محكما وله في الألفاظ مذهب غاية في الطرافة والأهمية وحسن الفهم، فهو يذهب إلى انه مهما أوتيت الألفاظ مفردة من أوصاف فليست مقصودة لذاتها حتى وإن كان ذلك فإن الأمر لا يعدو الناحية الشكلية التي تؤثر في تأليف اللفظة مع قرينتها في التركيب الذي يحرص عليه ناقدا كثيرا[4]، وتحليل عبد القاهر لهذه المشكلة يمثل إحداث نظرية نقدية تقاس بها جودة الكلام وبلاغته، لأنها تبين هذا التلاحم والتآزر التام بين اللفظ والمعنى، ويبدو لنا جليا من كل هذا أن عبد القاهر الجرجاني قد رد إعجاز القرآن إلى خصائص أسلوبه، ونظمه وراء جمال اللفظ والمعنى، أي التركيب والصنع التي اعتبرها صورة عامة غير منفصلة عن سياقها، لأن دلالة اللغة عنده لا تكون بعزل الألفاظ عن سياقها لأن الوظيفة الأساسية للغة هي الاتصال والتفاهم إذ يظهر فضل

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، د.ط، ص 02.

2- نفسه، ص 03.

3- أحمد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 96.

4- يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، ط1، بيروت، لبنان، 1983، ص 188.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

بعض القائلين على البعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في أنفسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم[1]، لذلك فقد اهتم ببلاغة الكلام الذي يصور المعنى بطريقة فنية لأن من الكلام ما يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ومنه تصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده[2]، ويقول: "وكلام آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض..."[3]، فالإنسان عندما يصل إلى المعنى بدلالة اللفظ، والظاهر في ذلك هو المعنى، وإلاّ فإنّه قد يحتاج إلى وسائط للوصول إلى الهدف أو الغرض المقصود لأن معنى اللفظ المباشر وحده لا يكفي، فقد تحصل أن يتخذ تحولات دلالية عند الاستعمال لأن غاية الكلام الفني يتجاوز ما تحويه اللغة من معان بالاتفاق إلى معان جديدة حين يتصرف فيها المتكلم بما يلائم طبيعته ما يريد التعبير عنه حين يشكل كلامه بوحدات اللغة التي يجعلها تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من الترتيب والتركيب[4]، فعن طريق هذه الوحدات قد يصل المتكلم إلى قمة الفصاحة، ولا يبلغ المتكلم ذلك (اقصد الفصاحة) باللفظ وحده وإنّما الفصاحة، والبلاغة تكمن في نظم الكلام وتأليفه، وفي هذا الصدد يقول الجرجاني: "إنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة عن الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلقا معناها بمعنى ما يليها"[5].

1- يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص 96.

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 35.

3- نفسه، ص 35.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 202.

5- نفسه، ص 202.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

فمن الواضح هنا أن الجرجاني يؤمن بأن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وإنما تكون فيها إذا ضم بعضها إلى بعض[1]، ويشرح (الضم) هنا بقوله: "أن المعنى يكون في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[2]، ويقصد بذلك العلاقات النحوية، الألفاظ فيما بينها، أي أن الفكر ينطلق من معاني الكلمات المفردة، ليقدر معاني الكلمات المركبة أو المنظومة.

واللفظ عند الجرجاني سمة للمعنى الذي وضع له، إذ يقول: "وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها، أو ليست هي سمات لها أوضاعا قد وضعت لتدلّ عليها، فكيف يتصور أن تسبق في نفس المرء وليست العكس، لأنه لو جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه على أشباه هذا من فنون المحال ورديء الأحوال"[3].

ويتضح جليا من هذا القول أن معرفة المعاني أمر ضروري ومهم لتعلم اللغة والتصرف فيها، لذلك إن الكلام كما يقول الجرجاني: "خبر واستخبار، وأمر ونهي ولكل من ذلك لفظ وضع له وجعل دليلا عليه فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أم فارسية وعرف المعنى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّن في تلك اللغة"[4].

فالكلام لا يكون مفيدا طالما لم يكن هناك معنى متواضع عليه، عند استعمال الكلمات في تراكيب يمكن للفرد أن يتصرف فيها، فالمعنى هو الرابط بين الاسم والمسمى ومن خلال ما سبق ذكره يتضح أنّه لا غبرة للجرجاني بالدلالة اللفظية

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 359.

2- نفسه، ص 359.

3- نفسه، ص 359.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 05.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

وحدها وهي الدلالة المعجمية والدلالة النسبية المورفولوجية على الحدث[1]، كدلالة الفعل على الحدث، فليس المقصود في ذاتها (الدلالة اللفظية) لأن الهدف هو الكشف عن المعنى المستور والكامن في نفس المتكلم، لكن باستخدام ألفاظ لديها دلالة متفق عليها عند أهل اللغة، وهي ما يسمى بالدلالة اللفظية الوضعية" أي دلالة الألفاظ الموضوعة على مدلولاتها لأن الحكم على اللفظ بعد إطلاقه ليس من حق المتكلم وإنما مردّه إلى نظام لغوي عام يحكم على اللفظ به وليس السامعون بحاجة إلى إشارة المتكلم إلى المعنى المقصود من لفظه لأن المعنى متواضع عليه في أذهاننا لعلمنا بالوضع[2] فالصيغة الكلامية إنما هي ألفاظ مركبة دالة على معاني، سواء كان متفق عليها أو العكس وتبقى اللغة نظاما اجتماعيا موجودا في أذهان البشر الناطقين بها.

فاللفظ عند إطلاقه يكون موجها أولا إلى معناه الوضعي قبل أن يخرج عليه لأن دلالة اللفظ لا تنفك عن الوضع، فهي مستندة إليه وهو الأصل الذي يرتد الكلام إليه، وهو المعنى الأول القائم في النفس والمعبّر عن اللفظ الدال عليه[3].

وإلى جانب الفئة السابقة هناك فئة تتولى بالترابط بين اللفظ والمعنى، ولعل ابن قتيبة أول من دعا إليها وبذلك خالف الجاحظ في بصيرة اللفظ على المعنى، فرأى أن الشعراء أربعة، وأن البلاغة لا تقتصر على اللفظ فقط، فقد تكون فيه وقد تكون في المعنى أو فيهما معا، وقد تنقصهما معا مذهبه التسوية، وميزاته في ذلك والجودة

1- منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001، ص132.

2- أحمد سمير معلوف، حوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات اتحاد الكتب العرب، ط1، 1996، ص 91.

3- نفسه، ص 94.

مـــفـــهــــــــــوم الشعــــــــــر عند

الجـــــــــــــــاحــــــــظ

والرداءة وقد يحكم بتعديها المنطق في ذلــك فالشــعر أربعــة ضــروب فــي نظــره ولا يسمح المنطق بغيرها:[1]

1) لفظ جيد والمعنى جيد
2) لفظ جيد والمعنى رديء
3) لفظ رديء والمعنى جيد
4) لفظ رديء والمعنى رديء

فالقضية إذن صلة بين اللفظ والمعنى والجودة في كليهما هــي المقدمــة وذلــك يــدل على وجود تفاوت بين المعــاني وليســت كمــا يــرى الجــاحظ بأنهــا مطروحــة فــي الطريق، فهو قد يعني الصورة الشعرية مثلما الحكمة، فهنــاك تــرابط بــين الاثنــين مــع أنه يستثني فيقول: "إن بعض الشعر يروى بخصائص أخــرى كالإصــابة فــي التصــوير أو جمال النعمة، أو طرافة المعنــى المســتغرب أو لأســباب خارجيــة أخــرى"[2]، فــابن قتيبة لم يكد يقف عند الهدف العلمي وقوفا طويلا، إنمــا أشــار إليــه إشــارة عــابرة وإن كان قد استغله في التطبيق عن الحــديث قــال: "إن أحــد مــا قالــه العلمــاء فــي شــعر الشعراء في الألفاظ والمعاني"[3]، كما انــه لمــح إلــى الســرقات الشــعرية أمــا الهــدف الفني فقد لمح إليه تلميحا في المقدمــة إلا أنــه أفــاض فــي التنظــيم والتحديــد، وضــع القواعد التي يستعين بها الناقد حتى يكــاد يلمــس مــاء الشــعر مــن عنصــر كــريم أو هجين.

أما قدامة بن جعفر وإن لم تشغله قضية اللفظ والمعنــى مــا شــغلت غيــره، لا يكــاد يبين تفضيله للفظ أو المعنى ويلوح لنا أنه نظر إليها نظــرة أرســطو إلــى وحــدة العمــل الأدبي لأنه عالجها متصلة بغيرها من أركان القصيدة الأخــرى، وهمــا الــوزن والقافيــة

1- نفسه، ص 70.
2- أحمد سمير معلوف، حوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص 71.
3- نفسه، ص 72.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

وائتلافهما معا[1]، وقدامة وإن أفرد نعت كل ركن من هذه الأركان على حدا، لم يقصر الجودة على واحد بعينه، بل رآها فيها مؤتلفة، ومجتمعة حين يقول: "اللفظ والمعنى والوزن والقافية وصور ائتلافهما معا"[2].

أما الأمدي فقد ركّز على أهمية صحة المعنى، وصحة التأليف معا، فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة، هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى فكل من كان أفصح تأليف كان أقوى بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه، ويضيف أيضا: "ينبغي أن تعلم أن سوء التأليف، وراء اللفظ يذهب بحلاوة المعنى الرقيق، ويفسره ويحميه حتى يحوج مستعمله إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره وحسن التأليف، وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءًا وحسناً ورونقًا، وذلك مذهب البحتري... وإن جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن، كان ذلك من الطراز الجيد على ثوب الخلق"[3].

ونظر الباقلاني إلى اللفظ والمعنى نظرة ترابط، لا انفصام حيث يقول: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإن كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب للدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة على المعنى المطلوب..."[4].

إضافة إلى الفئتين السابقتين اللتين إحداهما تقوم على التطابق بين اللفظ والمعنى، وأخرى لا تركز على المعنى، والفئة الثالثة تنتصر للمعنى على حساب اللفظ، غير أن بعض إتباعها لا يسقط الفظ من حسابه، ومن أتباع هذه الفئة

1- يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد القديم، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، ص115.

2- نفسه، ص 115.

3- الجاحظ، الحيوان، ص 160.

4- يوسف حسين بكار، نفس المرجع، ص 116.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

'المرزوقي' الذي يوجب الفضل للمعنى في أكثر الأحوال قال: "قلمّا... كان الشاعر يعمل قصيدته بيتا بيتا، وكل بيت يتقاضاه بالاتحاد ويجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى، وأن يبلغ الشاعر في تلطيفه، والأخذ من حواشيه، حتى يتسع اللفظ به، فيؤدبه على غموضه وخفاءه حدًّا، يصير المدرك له والمشرف عليه كالفائز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها"[1].

وابن الأثير أكثر الموالين لهذه الفئة إذ يجعل الألفاظ خدما للمعاني، والمخدوم لا شك أنه أشرف من الخادم، ولذلك يصرح أن المعاني أشرف من الألفاظ ثم يورد أدلة على ما يقوله وهي:[2]

1- لو جردت الألفاظ من دلالتها على المعاني، لما كان شيئا معها أحق بالتقديم من شيء.

2- إن النّظم والنثر يستعان عليهما بتدقيق الفكرة وكثرة الرؤية والتدبير وهذا ما يكون في المعنى دون اللفظ.

وكان ابن شرف القيرواني (ت 460 ه) يرى أن من الشعر ما يملأ السامع ويرد على السامع منه قعاقع، فلا ترعك شماخة مبناه، وأنظر إلى ما في سكناه من معنى، فإن كان في البيت ساكن، فتلك المحاسن وإن كان خاليا فعدده جسما باليا، وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها، فكم من معنى عجيب في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح، فإن حسن فذلك الحظ الممدوح، وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح"[3]، فتلك هي الفئة الثالثة لم تستوف لخروج رأيها عن المنهج، وفئة رابعة متناقضة مترددة يمثلها أبو هلال العسكري بجدارة فتارة يقول: "وليس الشأن في

1- حميد آدم أثويني، المرجع السابق، ص83.

2- الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 169.

3- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 125، 126.

مفهوم الشعر عند الجاحظ

إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسن بهائه ... وكثرة طلاوته ومائه وصحة السبك والتركيب والخلو من أودّ النّظم والتأليف..."[1]، وهذه دعوة صريحة على العناية باللفظ وتحسينه، واقتباس من قول الجاحظ الذي أوردناه غير أن أبا هلال لم يلتزم برأيه في الانتصار إلى جانب اللفظ بل عدل عنه فقال: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة"[2]، وخامسا نجد فئة تفصل بين اللفظ والمعنى فصلا لا يظهر منه ترجيح لأحدهما على الآخر فالأشاعرة أسهموا في الفصل بين اللفظ والمعنى من خلال مناقشتهم المعتزلة في قضية خلق القرآن، فقد ذهبوا دفاعا عن فكرة قدمه إلى التمييز بين (المدلول) وهو المعنى القائم بالنفس من الكلام وبين (الدلالة) وهي عندهم الألفاظ أو العبارات، التي يعبر بها المتكلم عن المعنى، وبناء على هذا التصور أصبح القرآن في نظرهم قديما من حيث مدلوله الذي هو كلام الله عزّ وجلّ، محدثا من حيث دلالته، لاتصال الألفاظ بالبشر المخلوقين.

ومسألة الفصل بين اللفظ والمعنى لم تبق حبيسة الدراسات القرآنية وإنما انتقلت إلى مجال النقد الأدبي، لتصبح من قضاياه الرئيسية التي حظيت باهتمام كبير من النقاد، لأن الدراسات الجمالية للقرآن، في إطار بحث قضية الإعجاز خصوصا لم تكن منفصلة في الواقع عن كلام العرب –والشعر منها خاصة– من حيث البحث عن الشاهد الأسلوبي الذي يؤيد به الدراسة الظاهرة التي يعالجها في الأسلوب القرآني ومن حيث المفاضلة بين القرآن الكريم وكلام البشر في جمال الأسلوب

1– أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الفكر العربي للنشر، لبنان، ط2، ص، ص 57، 58.
2– نفسه، ص 96.

مـــفـــهـــــــــوم الشعـــــــــر عند

الجـــــــــــــاحـــــــظ

وإحكام التأثير[1]، ويمكن أن نسلك ابن طباطبا العلوي في هذه الفئة، وهو الناقد الوحيد الذي صرح في وضوح بفكرة اللفظ والمعنى في نظم القصيدة، وصاحب فكرة مخض المعنى، نثرا وإعداد اللفظ المناسب له حيث يرى أن المعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها، وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعارض للجارية الحسناء، التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد ثبت بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح"[2].

1- يوسف حسين بكار، المرجع السابق، ص 129.

2- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرحه عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1985، ص 75.

لقد قادنا البحث في مفهوم اللفظ والمعنى عند الجاحظ، فضلا عن الوقوف عند أهمّ مراحل حياته والعصر الذي عاش فيه وما شهده من أحداث حافلة إلى جملة من النتائج نسردها في الآتي:

كان الجاحظ بمثابة مرآة عاكسة لعصره، فجاء إنتاجه غزيرا، تلاءم مع الحضارة العباسية التي عايش تطورها، وفي نفس الوقت يعد أصدق مصور لعصره، كما تبين دخول ثقافات على الثقافة العربية الإسلامية كالثقافة الفارسية، اليونانية والهندية وغيرها، كان لها الأثر الكبير على المستوى الثقافي والعلمي لأدباء هذا العصر، كما كان أحد أئمة الاعتزال البارزين، فكان لهذا المذهب أثره الواضح في بعض القضايا كقضية اللفظ والمعنى... فقد اعترف من جميع الثقافات فكان يحق موسوعة علمية، إذ يعد أول من أثار قضية اللفظ والمعنى التي نظر إليها قبل النقاد الآخرين، فقضية اللفظ والمعنى عنده تعد مسالة أساسية مشتركة بين العلوم والدراسات العربية المتصلة بالكلمة واللغة، فقد نشأت في أحضان مختلف العلوم عامة والبلاغة واللسانيات على وجه الخصوص، فاللفظ والمعنى عنده في مستواهما الفني غير مفصولين عن التصور اللغوي، إذ يرى أن البلاغة في الألفاظ،فلذلك لم يعن القدامى بالألفاظ أصواتا مجردة من معانيها وإنما عنوا بها العبارة عن المعنى، فدلالة المعنى عند الجاحظ مستخلصة من مقولته "المعاني مطروحة في الطريق"، فالمقصود باللفظ دائماً اللفظ المفرد ولا المقصود بالمعنى دائما المدلول المفرد، فلهذه القضية علاقة وطيدة بمشكلة الوضع والمواضعة فيما يخص نشأة اللغة، فالعلاقة التي تربط بينهما هي علاقة اعتباطية.

إن الألفاظ هي الوحدات الأساسية التي تشكل اللغة لأنها قابلة لتحقيق التواصل، فالمعنى هو الربط بين الاسم والمسمى فهو يعطي للمواضعة ثيابها هذا بالإضافة إلى

تقديمـه لرؤيـة علميـة شـاملة فـي الـدرس اللغـوي، وهـذه الرؤيـة مـا هـي إلا ثمـرة مـن ثمـار الـدرس اللغـوي خاصـة والأدبـي علـى وجـه الخصـوص، ففـي نظـره اللغـة العربيـة نظـام مـرن قابـل للدراسـة والتحليـل ومصـدر للإبـداع والإنتـاج، كمـا يـرى أن سـبب التقـارب الـدلالي هـو اشـتراك الألفـاظ فـي مخـارج أصـواتها، فـاللّفظ عنـده يـرتبط بمجموعـة مـن العناصـر التـي تشـكل معـه حقـلا دلاليـا بالاعتمـاد علـى العلاقـات الترابطيـة المكونـة لنظـام المـدلولات العربيـة، هكـذا يبقـى الجـاحظ مـادة خاصـة لمـن أراد الخـوض فـي هاتـه الجوانـب، ونرجـو أن يكون هذا العمل المتواضع نافعًا ومفيدًا لمن يَصْبُ إليه.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المراجع باللغة العربية:

1. ابتسام مرهون، ناصر الحلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006.
2. ابن رشيق القيرواني، العمدة، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ج3، ط 1، 1996.
3. ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرحه عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1985.
4. ابن منظور، لسان العرب، مادة جحظ، د.ت، ص 192.
5. أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الفكر العربي، لبنان، ط2، د.ت.
6. إحسان عبّاس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 1، لبنان، 1971.
7. أحمد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.
8. أحمد الوردوني، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2004.
9. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط29، 1975م.
10. أحمد سمير معلوف، حوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات اتحاد الكتب العرب، ط1، 1996.
11. أدونيس، الثابت والمتحول، تأصيل الأصول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، دار العودة. بيروت، ط1، 1977م.
12. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط 4، ج1، 1985.
13. الجاحظ، الحيوان، ت.ح: عبد السلام هارون، ج3، ط3، بيروت، لبنان، 1969.
14. الجاحظ، تح: يحي السامي، دار ومكتبة الهلال، مصر، د.ط، 2003.
15. جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998.
16. جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة متعددة.
17. حميد آدم أثونبي، منهج النقد الأدبي عند العرب، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004.
18. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، د.ت.

19.رابح العوبي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال التربيع والتدوير، الحيوان، البخلاء، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م.
20.سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.
21.سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001.
22.شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر، د.ت.
23.شكري عياد، كتاب أرسطو طليس، ترجمة : منى ابن يونس القنائي، دار الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1967.
24.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج4، العصر العباسي 2، دار المعارف، مصر، ط 2، 1975.
25.طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، ط2، 1975م.
26.عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د، ت)
27.عبد القادر هني، نظرية إبداع في النقد العربي القديم، دار الثقافة، الجزائر، د.ط، 1999.
28.عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجات يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.
29.علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، دون طبعة.
30.علي شلق، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 2006.
31.فوزي عطوي، الجاحظ، دار المعارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م.
32.قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتّاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003.
33محمد الصغير بنّاني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبو عات الجامعية، الجزائر، 1994.
34.محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال كتاب البيان والتبيين، دار الثقافة، الجزائر، ط 1994.
35.محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط.
36.محمد كرد علي، أمراء البيان ، دار الآفاق العربية، مصر، ج2، 2003.

37.منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001.

38.هيثم سرحان، إستراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003.

39ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين، نشأة وفكر اً وأسلوباً، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، د.ت.

40.يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، ط1، بيروت، لبنان، 1983.

41.

ب- المراجع المترجمة:

42.جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عبّاس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط1، 1987.

43.شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، د.ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1985م.

44.فيكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ط3، دار المشرق، لبنان، 1992م.

ج- الموقع الالكتروني:

45.مليكة حفان، إعجاز القرآن بين مبادئ اللغة وأصول العقيدة، www.dinanalarab.com الساعة 13:13 سا.

فهرس المحتويات

مـقـدمـــة

مدخــل 04

الفصل الأول: شخصيـــة الجــاحـظ

مولده ونشأته 14

صفـــاته وأخلاقـــه 17

مؤلفات الجاحظ وكتبه 19

مميزات عصره 21

مصادر ثقافته 27

وفاة الجاحظ 31

الفصــل الثــانــي: مفهــوم الشعــر عند الجـــاحــظ

موقف المعتزلة من قضية اللفظ والمعنى 34

المفهوم المعنى عند الجاحظ 36

رمزية المعنى واللفظ 36

تعريف اللفظ 37

الجاحـظ وقضيـــة اللفــظ والمعنى 38

اللفــظ والمعنى عند النقــاد القدامى 48

دلائل الإعجــــاز وعلاقتها بقضية اللفظ والمعنى 51

خــاتمـــة